الأسطورة والوعي

عصام الدين حفني ناصف

◆ المؤلف: عصام الدين حفني ناصف
◆ العنوان : الأسطورة والوعي - قابيل وهابيل - إبراهيم - لوط - يوسف - داود
◆ طبعة آفاق الأولى 2019
◆ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
◆ مستشار النشر: سوسن بشير
◆ المدير العام: مصطفى الشيخ

رقم الإيداع:
٢٠١٨ / ٢٢٥٥٩
الترقيم الدولي : ISBN
978 - 977-765 - 200 - 1

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه. أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

الأسطورة والوعي

قابيل وهابيل

إبراهيم - لوط - يوسف - داود

تأليف

عصام الدين حفني ناصف

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشؤون الفنية

ناصف، عصام الدين حفني.

عصام الدين حفني ناصف : الأسطورة والوعي

ط1 القاهرة – دار آفاق للنشر والتوزيع – 2019

184 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 22559 / 2018

الترقيم الدولي 978 – 977 – 765 – 200 – 1

1 – العنوان

2 – ناصف، عصام الدين حفني

قابيل وهابيل

﴿ ۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِۚ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٧ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

[المائدة: ٢٦- ٢٩].

ولكن قال بعض العلماء إن ابني آدم ليس معناه ابنيه لصلبه، وإنما هما رجلان من بني إسرائيل وكلنا أولاد آدم، ودليله على ذلك أنه قال عقب هذه القصة.

﴿ مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ [المائدة: ٣٢].

تفسير محمد فريد وجدي

قابيل وهابيل

دوَّن الكتاب المقدس تاريخ العالم كله، من بدء الكون إلى غرق الأرض بالطوفان في خمسة إصحاحات، ودوَّن تاريخ العالم من انحسار الطوفان إلى هجرة أبراهام في إصحاحين آخرين، ثم أمسك عن مطالعتنا بشيء من مدنية ذلك العصر على عراقتها إلَّا حين يتصل الأمر باليهود، كما أغفل الحديث عن تلك الشعوب الموغلة في القدم المؤثلة الحضارة التي ازدهرت في الشرق، ولم تمتد يدها بالأذى إلى شعوب غربي آسيا.

وقصة قابيل وهابيل تفسر لنا مبعث ذلك الإغفال، بأن لعنة الله على قابيل قد محت امتيازه بحق البكرية، فانقطع حفدته وهم شعوب الشرق عن أن تنتظمهم سلسلة التاريخ، واتصل الخيط في سفر التكوين من بدء الخليقة مباشرة إلى شعب الله المختار.

والآن نلقي نظرة على قصة قابيل وهابيل.

ذرأ الله الإنسان على مثاله.

«فخلق الله الإنسان على صورته».

تكوين ١: ٢٧

١- فإذا المرأة الأولى تغرر ببعلها وتخدعه عن نفسه.

٢- وإذا الرجل الأول غر ينخدع بها.

٣- وإذا ابنهما الأول قاتل سفاح لا يتأثم عن سفك دم أخيه.

ومع كل أولئك فقد أعجب الخالق بما خلق.

«ورأى الله كل ما عمله فإذا هو حسن جدًّا».

تكوين ١: ٢١

وقد دأب الله في خلق الكون ستة أيام كاملة، وما انتهى من ذلك في مساء اليوم السادس حتى كان قد ران[١] عليه اللغب[٢] فأخلد إلى الراحة طوال اليوم السابع.

«وفرغ الله في اليوم السابع[٣] من عمله الذي عمل فاستراح الله في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل».

تكوين ٢: ٢

---

(١) ران هواه على قلبه: غلب عليه ﴿... بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤] أي غلب عليهم حب المعاصي.

(٢) لغب الرجل: تعب وأعيا أشد الإعياء ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨].

(٣) يعني في نهاية اليوم السادس.

وقد كان الرجل والمرأة آخر ما برأ الله من مخلوقاته فهما حثالة[١] البرية، وكأنما برأهما الله وقد أضناه التعب ولهذا جاءا ملهوجين[٢]، ولو أنه كان قد نال قسطه من الراحة في اليوم السادس ثم برأهما في اليوم السابع لما تسنى للشيطان أن يوقع بهما.

* * *

وأخذ آدم وحواء يستكثران من النسل دون أن يدور بخلدهما ما تفتق عنه ذهن ابنهما «مالثوس» من أن الناس سيكثرون حتى يوشكوا ألَّا يجدوا ما يقيم الأود[٣] ويمسك الرمق[٤].

ولما ولدت حواء ابنها البكر قالت:

«اقتنيت رجلًا من عند الرب».

تكوين ٤ : ١

فهو في نظرها مجرد قنية، ولهذا أسمته قايين. ويتصل هذا الاسم بفعل عبري معناه «يضرب» أو «يطعن»، فهو ينطوي في تضاعيفه على معنى العنف أو القتل، كما ينم على اسم جد مخترع الآلات الحديدية وأسلحة الدمار كما سنرى. ولم يعلق آدم على هذه التسمية بشيء.

---

(١) الحثالة: ما يسقط من قشر الشعير والأرز والتمر وكل ذي قشارة إذا نُفِي و –سفلة الناس تقول: ما بقي من الناس إلَّا حثالة. وهو من حثالة الناس أي من رذالتهم.

(٢) لهوج الأمر. لم يحكمه ولم يبرمه و –الشواء. لم ينعم شيه فهو شواء ملهوج. حديث ملهوج ورأي ملهوج: غير محكم.

(٣) الأود: الاعوجاج.

(٤) الرمق: بقية الحياة.

أما الابن الثاني. فقد دُعِيَ «آبل»[1] وهو لفظ عبري زعم يوسفس أنه «حزن» أو «حسرة»، بيد أن العلماء المحدثين يفسرونه بمعنى «عدم» أو «وهن» أو «باطل» وهي تسمية تلقي ظلال الشك على القصة كلها.

كان على كل من قابيل وهابيل أن يكسب عيشه بالجد في إنتاج مواد الطعام، فاتجه قابيل إلى تربية حيوانات اللحوم ونزع هابيل إلى زراعة الخضر والبقول، فكانا إذا ما جلسا يطعمان تضلع[2] أحدهما من اللحم وتبلغ[3] الآخر بالخضر والبقول. أو لعل الأخوين كليهما كانا نباتيين، وأنهما إنما أقبلا على تربية ذلك القطيع الصغير من الخراف طلبًا لأصوافها، ولعلهما كانا يعبان بين آن وآن من ألبان النعاج، فاللبن وإن يكن نتاجًا حيوانيًّا يستدره المرء في سهولة ويسردون أن يزهق في سبيله روح الحيوان. ومع ذلك فقد كانت الحيوانات تُقتل ليضحى بها على مذابح الآلهة؛ كي يجزلوا الخيرات للإنسان فما ضر لو ذبحت ليأكلها الإنسان.

وقد انتهى تقسيم العمل على هذا النحو بين الأخوين الشقيقين إلى كارثة لم تكن في الحسبان، ذلك أن يهوه، وهو من أكلة اللحوم، التهم شواء هابيل في التذاذ وطوى أنفه اللدني عن الكراث والبصل والثوم وما

(١) وقد عُرب الاسمان «كاين» و«آبل» فأصبحا «قابيل وهابيل» وهو تعريب روعي فيه السجع والازدواج كما روعي في «موسى وعيسى» (يسوع) و«طالوت وجالوت» (شاول وجليات) و«هاروت وماروت» و«يأجوج ومأجوج». وقد ارتضى مترجمو سفر التكوين إلى العربية هذا التعريب في اسم آبل، ولم يرتضوه في اسم شقيقه قايين.

(٢) ضلع: امتلأ شبعًا، وقيل ريًّا حتى بلغ الماء أضلاعه. تضلع الرجل: امتلأ شبعًا وريًّا «كان يتضلع من زمزم».

(٣) تبلغ بكذا: اكتفى به.

إليها من ألوان الخضر التي غدت فيما بعد أثيرة لدى شعبه المختار[1].

ولم توضح لنا القصة لِمَ أعرض يهوه عن قربان قابيل واقتحمته عينه؟

«فنظر الرب إلى هابيل وقربانه ولكن إلى قايين وقربانه لم ينظر».

تكوين ٤: ٤

أكان ذلك لأنه، كما يزعم التلمود، لم يقدم خير ما أنتجه حقله، أم لأنه كان يغار من أخيه؛ إذ إن عمله في رعي الغنم عمل هين يسير وهو مع ذلك يفيء عليه رزقًا وافرًا؟

ليس يلوح أن السبب شيء من هذا أو ذاك، فقد كانت تربية الأغنام تتطلب حمايتها من عدوان السباع الضارية والطيور الكاسرة، ولم تكن الزراعة قد عُرفت بعد. وقصارى القول أن للرب أن يفعل ما يشاء بغير حساب دون أن يسأل عن الأسباب.

ملك الملوك إذا وهب لا تسـألن عن السـبب
الله يعطي من يشـا ء فقـف على حـد الأدب

فهو يحبو بحبه من يشاء ويحل مقته بمن يشاء وهو يمنح من يشاء ويمنع عمن يشاء.

يعطي ويمنع لا بخلًا ولا كرمًا لكنها خطرات من وساوسـه

(١) «وقد تذكرنا السمك الذي كنا نأكله في مصر مجانًا والقثاء والبطيخ والكراث والبصل والثوم». عدد ١١: ٤-٥

«لقد أحب يعقوب (إسرائيل) وآثره على أخيه عيسو لغير ما سبب معلوم «كما هو مكتوب أحببت يعقوب وأبغضت عيسو».

رومية ٩: ١٣

وها هو ذا هنا يحب هابيل ويعرض عن قابيل.

وإن علم الأساطير ليجلي لنا ما غمض من هذا الأمر، فقد كان مبدأ التضحية من المعالم البارزة في ديانة اليهود وليس ثم غفران للإثم بلا سفح دم.

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

فعلى اليهود أن يقدموا الأضاحي بين الحين والحين. وفي ناموس موسى الخاص باللاويين أن أهم واجبات أولئك الكهنة هو إحراق ما يقربه أفراد الشعب من تقدمات الإثم، ومن ثم لم يكن عسيرًا علينا أن ندرك كيف عمد اليهود الذين كتبوا التوراة أو الذين نقحوها بعد السبي البابلي، إلى إسباغ هذا اللون الدموي على قصة التكوين تبريرًا للتضحية بالحيوان.

وقد جرى اليهود على أن ينظروا إلى مهنة رعي الغنم نظرة الإعظام وعلى أن يرفعوا من شأن الحياة الرعوية وينتقصوا من قدر حياة الزراعة[1] فكان من الطبيعي أن يضفي المؤرخون العبرانيون على تلك

(١) وعلى العكس من ذلك كانت ديانة الفرس تؤثر حياة الزراعة، وترى فيها نوعًا من الخدمة الإلهية، أما البرهمية والبوذية فقد سارتا شوطًا أبعد إذ حرمتا ذبح الحيوان تحريمًا باتًّا.

الحياة قدسية ويحيطوها ببركة الله[1] ولم يكن غريبًا أن يزعموا أن الزراعة قد فرضت على بني آدم عقابًا لهم على ما اقترفه آدم من خطيئة.

«بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك».

تكوين ٣: ١٧

وقد بقي اليهود محتفظين بنظرتهم هذه إلى ما بعد انتقالهم إلى فلسطين، ومن ثم كان الرجال البارزون في أساطيرهم وفي تاريخهم يظهرون من بين رعاة الأغنام، ولا يتخلون عن قطعانهم بعد تسنمهم العروش.

١- فقد كان أبراهام صاحب قطعان من الأبقار والأغنام حباه بها فرعون عندما شد رحاله إليه مصطحبًا امرأته الجميلة سارة.

«ورآها رؤساء فرعون ومدحوها لدى فرعون فأخذت المرأة إلى بيت فرعون. فصنع إلى أبرام خيرًا بسببها. وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأتن وجمال»[2].

تكوين ١٢: ١٥ -١٦

ثم ضاعف قطعانه بعد عشرين عامًا إذ شد رحاله هو وزوجته الجميلة إلى أبيمالك ملك جرار.

«فأخذ أبيمالك غنمًا وبقرًا وعبيدًا وإماء وأعطاهم لإبراهيم».

تكوين ٢٠: ١٤

(١) يُقال إن هناك حديثًا يقول: «ما من نبي إلا وقد رعى الغنم».

(٢) لاحظ ذكر العبيد والإماء بين الحمير والأتن.

وقد طالعتنا هذه الحادثة مرة أخرى معزوة إلى إسحق، فقد قصد إلى أبيمالك ملك جرار مستصحبًا امرأته الجميلة رفقة[1].

«وسأله أهل المكان عن امرأته. فقال هي أختي لأنه خاف أن يقول امرأتي لعل أهل المكان يقتلونني من أجل رفقة لأنها كانت حسنة المنظر».

تكوين ٢٦: ٧

وأقطعه الملك أرضًا.

«وزرع إسحق في تلك الأرض فأصاب في تلك السنة مئة ضعف وباركه الرب. فتعاظم الرجل وكان يتزايد في التعاظم حتى صار عظيمًا جدًّا. فكان له مواشٍ من الغنم ومواشٍ من البقر وعبيد كثيرون. فحسده الفلسطينيون».

تكوين ٢٦: ١٢ -١٤

٢- ورعى يعقوب غنم خاله وحميه لابان الأرامي.

«فكان لما أبصر يعقوب راحيل بنت لابان خاله وغنم لابان خاله تقدم ودحرج الحجر عن فم البئر وسقى غنم لابان خاله... وأحب يعقوب راحيل فقال أخدمك سبع سنين براحيل ابنتك الصغرى».

تكوين ٢٩: ١٠ -١٨

٣- وكان موسى يرعى غنم حميه كاهن يثرون عندما ظهر له الرب

(١) وهي في اللغات الإفرنجية «ربكا».

في شجيرة نارية لا تفتأ ألسنة اللهب تندلع منها.

«وأما موسى فكان يرعى غنم يثرون كاهن مديان. فساق الغنم إلى وراء البرية وجاء إلى جبل الله حوريب. وظهر له ملاك الرب بلهيب نار من وسط عليقة. فنظر وإذا العليقة تتوقد بالنار والعليقة لم تكن تحترق. فقال موسى أميل الآن لأنظر هذا المنظر العظيم. لماذا لا تحترق العليقة فلما رأى الرب أنه مال لينظر ناداه الله من وسط العليقة وقال موسى. فقال هأنذا. فقال لا تقترب إلى ها هنا. اخلع حذاءك من رجليك لأن الموضع الذي أنت واقف عليه أرض مقدسة».

خروج ٣: ١ -٥

٤- وكان داود، بطل اليهود القومي، الذي اختاره الله بحسب قلبه، يرعى غنم أبيه «يسى».

«وقال صموئيل ليسى هل كملوا[١] الغلمان. فقال بقي بعد الصغير وهو ذا يرعى الغنم... فأرسل وأتى به... فقال الرب قم امسحه لأن هذا هو -فأخذ صموئيل قرن الدهن ومسحه في وسط إخوته. وحل روح الرب على داود من ذلك اليوم فصاعدًا».

١ صموئيل ١٦: ١١ -١٣

٥- وكان عاموس النبي كذلك راعيًا للغنم.

(١) هنا أسند الفعل إلى واو الجماعة مع أن الفاعل متأخر وظاهر وهو لغة ضعيفة، يمثلون لها بالجملة المعروفة (أكلوني البراغيث).

«فأجاب عاموس[1] وقال لأمصيا: لست أنا نبيًّا ولا أنا ابن نبي بل أنا راع وجاني جميز»

عاموس ٧: ١٤

٦- وهنا كذلك كان هابيل الذي نال الحظوة لدى ربه راعيًا للغنم، على حين كان قابيل الذي أعرض الرب عن قربانه أكارًا يعمل في الأرض.

ولم تظهرنا القصة على العلامات التي استبان بها كل من الأخوين مصير قربانه، وهي كذلك لم تخبرنا بفحوى الحديث الذي دار بين الأخوين، ولكن يبدو من السياق أن أحدهما نقض التعايش السلمي بينه وبين أخيه، وأنه استفزه بذلك الحديث الذي أعقبه مصرعه.

«وكلم قايين أخاه وحدث إذ كانا في الحقل أن قايين قام على هابيل أخيه وقتله»[2].

تكوين ٤: ٨

وقد حاول التلمود (وهو موضوع في القرون الخمسة الأول بعد الميلاد) أن يبتكر تعليلًا لما غمض من حوادث القصة، فجعل يرمي قابيل بمختلف المثالب زاعمًا أنه كان بخيلًا لئيمًا ينفس على شقيقه ما حباه الله به من زوجة جميلة. وأنه لما رأى الله قد أنزل من السماء نارًا التهمت القربان الدموي وتجافت عن الفاكهة والأزهار التي قربها هو

(١) عاش عاموس في منتصف القرن الثامن ق. م، وأمصيا هو كبير الكهنة.

(٢) وحدث بعد ذلك بنحو عشرين قرنًا أن دب النزاع بين الأخوين التوأمين عيسو ويعقوب عندما كلت عينا أبيهما إسحق فزعم يعقوب أنه عيسو وخدع أباه عن نفسه وجعله يمنحه بركته التي كان قد اعتزم أن يمنحها لابنه البكر عيسو، فلما علم عيسو أن أخاه سرق بركته أوشك أن يقتله لولا حصافة أمهما رفقة.

نقم على الله تحيزه وإيثاره أخاه عليه.

ومن هذا نرى أول نزاع مصطبغ بالدماء اشتجر في العالم كان نزاعًا دينيًّا. اختلف الأخوان على الطريقة التي يجب أن يعبد بها الله، فصرع أقواهما الأضعف.

وزار الرب قابيل بعدما قتل أخاه واستخبره عن مكانه فأجابه إجابة من لا يعتقد أن الله عليم بكل شيء، وقال مستنكرًا السؤال إن حراسة أخيه غير منوطة به، فقال الله.

«صوت دم أخيك صارخ إلى من الأرض[1] فالآن ملعون أنت من الأرض التي فتحت فاها لتقبل دم أخيك من يدك. متى عملت الأرض لا تعود تعطيك قوتها. تائهًا وهاربًا تكون في الأرض. فقال قايين للرب ذنبي[2] أعظم من أن يحتمل. إنك قد طردتني اليوم عن وجه الأرض ومن وجهك أختفي وأكون

(١) هذا القول يراد به معناه الحرفي، فقد كان العبريون يعتقدون أن دم القتيل لا يزال يضج ويصرخ ولا يفتأ يتعقب القاتل حتى يولجه رمسه. ولهذا كان مقاتلو اليهود إذا عادوا من حومة الوغى عاشوا في معزل عن مدنهم أيامًا يطهرون فيها بالاغتسال وغسل ثيابهم حتى لا ينقلوا دم العدو إلى ديارهم فيتاح لها الاقتصاص منهم.

وشبيه بهذا ما كانت تذهب إليه جاهلية العرب من أن هناك طائرًا يُخلق من رأس المقتول يألف المقابر في الليل ولا يزال يصيح قائلًا: اسقوني اسقوني ولا يكف عن المطالبة بالاقتصاص للقتيل الذي طل دمه حتى يقتل قاتله. ولذلك كان يطلقون على هذا الطائر اسم الصدى أو الهامة. قال الشاعر ذو الإصبع العدواني:

«أضربك حيث تقول الهامة اسقوني» أي قتلك ضربًا

(٢) هنا خطأ جسيم في الترجمة وتصويبه أن تستبدل بكلمة «ذنبي» كلمة «عقابي» والمعنى أن هذا العقاب الذي سيحل به تلبية لهذه اللعنة والتي تجعله يظل يسرب في الأرض شريدًا طريدًا (كاليهودي التائه) أعظم وأقسى من أن يحتمله هو.

تائهًا وهاربًا في الأرض. فيكون كل من وجدني يقتلني. فقال له الرب لذلك كل من قتل قايين فسبعة أضعاف ينتقم منه. وجعل الرب لقايين علامة لكي لا يقتله كل من وجده فخرج قايين من لدن الرب وسكن في أرض نود شرق عدن».

تكوين ٤: ١٠ -١٦

وهكذا أسبغ يهوه حمايته على القاتل، وكان الخير أن يستنقذ ذاك الذي سفك دمه في سبيله.

والآن، فلنرجع البصر كرة في هذه النبذة؛ فإن فيها أشياء كثيرة تسترعي النظر:

١ - لِمَ كان هذا الجزع[١] ومِمَّ كان الفزع؟ وكيف يقتله الذين يرونه وقد أقوت[٢] المعمورة بمقتل أخيه من ساكنيها فلم يبق بها غيره هو ووالده؟

٢- كيف تجنبه العلامة المميزة شر القتل في يومه الحاضر أو في غده؟ وما جدواها عليه وهو في غنية عن العلامات لأنه أول من ولد على ظهر الأرض من البشر قاطبة ومن البديه أن يصبح معروفًا لمن يجيئون بعده.

٣- كيف «خرج قايين من لدن الرب» والرب في كل مكان؟

إن هذا يذكرنا بما فعله يونان (يونس) من محاولته الهرب من وجه

(١) جزع عليه: أشفق، ومنه قوله: «لا جزع اليوم على قرب الأجل».

(٢) أقوت الدار: خلت من ساكنيها.

«يا دار مية بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأبد»

الرب تخلصًا مما كلفه إياه من المضي إلى نينوى وإبلاغهم الرسالة هناك.

«فقام يونان ليهرب إلى ترشيش من وجه الرب فنزل إلى يافا ووجد سفينة ذاهبة إلى ترشيش فدفع أجرتها ونزل فيها ليذهب معهم إلى ترشيش من وجه الرب».

يونان ١ : ٣

ومن ذلك نرى أن يهوه ليس هو الروح اللا نهائية للكون، بل هو إله محلي منظور تراه العيون[١].

٤- ثم أين هي أرض نود هذه؟ يقول سفر التكوين إنها «شرقي عدن. ولكن أين عدن نفسها؟ إذن فقصارى القول أن أرض نود تقع إلى الشرق من مكان ما.

وبعد، فقد هام قابيل على وجهه في أرض غربته بنود.

«وعرف قايين امرأته فحبلت وولدت حنوك[٢]. وكان يبني مدينة. فدعا اسم المدينة كاسم ابنه حنوك».

تكوين ٤ : ١٧

٥- ومن يا ترى امرأة قابيل هذه؟ أتراه لقيها في نود أم تراه جاء بها من حيث أتى؟ ولمن جعل يبني المدينة؟ وكيف يتفق هذا الاستقرار

(١) ولهذا كانت عبادته لا تجوز إلا فوق ثرى بلاده.

(٢) اسم حنوك يقابله في الإنجليزية «إنوك» وهو الاسم الذي ترجموه في (تكوين ٥ : ٢١) باسم أخنوخ. وأخنوخ هو المعروف عند العرب باسم إدريس وهو الجبل السادس من حفدة آدم وفي التوراة أن الله رفعه إلى السماء حيًّا.

في المدينة واللعنة الإلهية التي فرضت عليه أن يظل تائهًا وهاربًا في الأرض؟ أم كان يتحدى مشيئة ربه؟

٦- والآن وقد غدا آدم وحواء وحيدين في موطنهما الذي عاشا فيه عقب طردهما من الجنة، وبعد مقتل أحد ابنيهما وفرار الآخر، كان عليهما أن ينسلا ولدًا جديدًا نقي السلالة لينحدر منه اليهود شعب الله المختار، وقد أقدم آدم على ذلك.

«وولد ولدًا على شبهه كصورته ودعا اسمه شيثا». تكوين ٥: ٣

فلا بد أن شيثًا قد جاء على صورة الله، ومنه انحدر البطارقة إلى نوح، ومن نوح انحدر أبراهام منشأ الجنس اليهودي، ومن ثم فإن كل يهودي ذي أنف من الطراز المعروف هو على صورة يهوه.

٧- فلم لم ينسل آدم قابيل على هذا الغرار[١] حتى لا يتضرج وجه البسيطة بدم شقيقه المسفوح؟

هذا، ولم تدل إلينا التوراة بما كان من أمر قابيل بعد أن حلت عليه اللعنة. أما شيث فهو حلقة في سلسلة من البطارقة تضم عشر حلقات أولها آدم وعاشرها نوح. وهذا العدد «١٠» يسترعي الانتباه قليلا[٢].

ومن البدهي أن ذرية قابيل لقوا منيتهم مع ذرية شيث إبان جانحة الطوفان، ولكنا إذا وازنا بين الفريقين، ألفينا أن ذرية قابيل هي التي

(١) الغرار: المثال الذي تضرب عليه النصال لتصلح.

(٢) يؤمن الهندوك بمقدم ١٠ قديسين كبار متسلسلين من «مانو»، وعندهم أن الإله «فشنو» قد تجسد في ١٠ شخصيات مختلفة. وقد كان للمصريين القدماء ١٠ أبطال أقوياء، وكان للكلدانيين ١٠ ملوك قبل الطوفان، وكان للأشوريين ١٠ ملوك من حام إلى نينياس ومثلها من يافث إلى أبرام. وعند اليونانيين القدماء أن أفلاطون هو الجيل العاشر لإله البحر «نبتن».

وضعت أساس المدينة إذ شيدت إحدى المدن، وابتدع أحدهم مهنة رعي الغنم، واخترع شقيقه الآلات الموسيقية، واحترف أخوه غير الشقيق مهنة الحدادة[1]، وذلك على حين أن ذرية شيث لم يكونوا يفعلون شيئًا غير الإيمان بالله، ولم يكونوا على حظ من مكارم الأخلاق حتى إنه لما جاء الطوفان لم يكن بينهم من يستحق الإنقاذ من الهلكة سوى ثمانية هم نوح وأولاده الثلاثة وزوجاتهم الأربع، وهؤلاء الأولاد الثلاثة سرعان ما فعل أحدهم ما استوجب صب اللعنة على ذريته؛ إذ حدق إلى أبيه المخمور والتمس التفكهة بالسخرية من عورته العارية.

❊ ❊ ❊

(١) «واتخذ لامك لنفسه امرأتين.. فولدت عادة يابال. الذي كان أبًا لساكني الخيام ورعاة المواشي. واسم أخيه يوبال. الذي كان أبًا لكل ضارب بالعود والمزمار. وصلة أيضًا ولدت توبال قايين الضارب كل آلة من نحاس وحديد». تكوين ٤ : ١٩ -٢٢

إبراهيم

إبراهيم

حظيت شخصية إبراهيم لدى المتدينين بالأديان السامية بمكانة لم يسم إليها غيره من الأنبياء.

فهو عند اليهود:

١- الرجل الذي ظعن من موطنه الأول في أور الكلدان إلى فلسطين، حيث أسس الإسرائيليون فيما بعد دولة لهم.

٢- الرجل الذي تراءى الله له وتحدث إليه وأعطاه موثقًا أن يمكِّن لذريته في الأرض ويقطعهم ما بين النيل والفرات[١].

٣- الرجل الذي أنشأ منسك الختان[٢] وعاهد الله على أن تستمسك به ذريته أبد الدهر لقاء ما منَّ المولى به عليهم من عطاء جزيل وما وعدهم به من مُلكٍ عريض.

---

(١) تكوين ١٥: ١٨.

(٢) تكوين ١٧: ١٠- ١٤، ١٧: ٢٣- ٢٦.

وهو عند المسيحيين.

٤- الأب الأعلى للرب يسوع المسيح.

«كتاب ميلاد يسوع المسيح ابن داود ابن إبراهيم».

متى ١: ١

وهو عند المسلمين.

٥- مؤسس الإسلام، فالإسلام هو ملة إبراهيم.

﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٧].

٦- باني الكعبة.

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ [الحج: ٢٦].

﴿ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ... وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [البقرة ١٢٥، ١٢٧].

٧- جد محمد بن عبد الله.

«إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من إسماعيل كنانة، واصطفى من كنانة قريشًا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم، فأنا خيار من خيار من خيار»[1]. حديث شريف

(١) أغلب الظن أن هذا الحديث مكذوب به على النبي، إذ إن الشبه وثيق بينه وبين حديث الملك داود الذي أدلى به عندما أراد أن يخص ابنه سليمان بولاية العهد، فقد رزق داود ابنه سليمان في كهولته

٨- وينطق المسلم اسم إبراهيم مرتين عند التشهد في كل صلاة من صلواته اليومية الخمس.

وقد ذكر القرآن اسم إبراهيم ٦٩ مرة.

وأنعم الله على إبراهيم بلقب لم يحب به سواه، ألا وهو لقب «خليل الله».

«فآمن إبراهيم بالله فحسب له برًّا ودعى خليل الله».

يعقوب ٢: ٢٣

«وما أنت يا إسرائيل عبدي يا يعقوب الذي اخترته نسل إبراهيم خليلي».

أشعيا ٤١: ٨

«ألست أنت إلهنا الذي طردت سكان هذه الأرض من أمام شعبك إسرائيل وأعطيتها لنسل إبراهيم خليلك إلى الأبد».

٢ أخبار ٢٠: ٧

﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٢٥].

= من السيدة الحسناء بتشبع التي اغتصبها عندما كان زوجها أوريا الحثي يذود عن حمى الدين والدولة في حومة الوغى، حتى إذا ما حملت منه سفاحًا استدعى زوجها وحمله رسالة إلى قائد الجيش يأمره فيها باغتياله، فلما أنفذ فيه القائد أمر مليكه ضم الملك المرأة إلى حريمه وأقام على حبها مؤثرًا إياها على سائر نسائه ولبى رغبتها فأعلن أن سليمان هو الذي سيخلفه على الملك دون أخيه الأكبر أدونيا، الذي بطش به سليمان عقب اعتلائه العرش. قال داود يحسم المسألة:

«وقد اختارني الرب إله إسرائيل من كل بيت أبي لأكون ملكًا على إسرائيل إلى الأبد لأنه إنما اختار يهوذا رئيسًا ومن بيت يهوذا بيت أبي. ومن بني أبي سر بي ليملكني على كل إسرائيل. ومن كل بني -لأن الرب أعطاني بنين كثيرين- إنما أختار سليمان ابني ليجلس على كرسي مملكة الرب على إسرائيل». ١ أخبار ٢٨: ٤ -٥

وقد برهن جميع خلان الله على تحليهم بخصائص وصفات لا يجمل بخلان الإنسان أن يتصفوا بها، وهو ما يتجلى في رحلات إبراهيم وامرأته الفاتنة إلى قصور الملوك في الأقطار المجاورة.

هذا، ويؤخذ من «العهد الجديد» أن إبراهيم قد استقر في السماء (أي في الجنة) منذ زمن سابق زمن المسيح بقرون، وأنه استقر في حضنه رجل يُدعى لعازر لا نعرف له مأثرة سوى أنه كان في دنياه رجلًا مسكينًا مضروبًا بالقروح يتخذ محله المختار في فناء[1] دار لواحد من الأغنياء، ويقعد فيه فتتوافد الكلاب عليه لتلعق قروحه.

وما دامت شدة العذاب في الدنيا تكفي لأن تدفع بالمرء في الآخرة إلى حضن إبراهيم، فلا ريب أن هناك عددًا جمًّا من النساء سيرتمين في أحضانه يوم القيامة، إلا أن سارة ستطوح بهم بعيدًا عنه كما فعلت بجاريتها هاجر.

أما ذلك الغني الذي لم تحص القصة من سيئاته أكثر من أنه كان موسرًا.

«يلبس الأرجوان والبز وهو يتنعم كل يوم مترفهًا».

لوقا ١٦: ١٩

فقد ساق إليه جده العاشر لعازر هذا ليجلس عند بابه فتبدو في نظر الديان صورة جلية للتناقض البالغ بين أغنى الغنى وأفقر الفقر.

لقد كفل له ماله النعيم في حياته، فلما انتهت حياته انتهى نعيمه

(١) الفِناء (بالكسر): الوصيد وهو ساحة أمام البيت، وقيل هو ما امتد من جوانبه.

وألقى به إلى الجحيم، فقد كانت أمه هاوية[1].

أي فمأواه النار.

«فرفع عينيه في الهاوية وهو في العذاب ورأى إبراهيم من بعيد ولعازر في حضنه. فنادى وقال يا أبي ارحمني وأرسل لعازر ليبل طرف إصبعه بماء ويبرد لساني لأني معذب في هذا اللهيب. فقال إبراهيم يا ابني أذكر أنك استوفيت خيراتك في حياتك وكذلك لعازر البلايا. والآن هو يتعزى وأنت تتعذب».

لوقا ١٦: ٢٣-٢٥

فتخلى ذلك الغني المهذب عن مطلبه فيما يتصل بلعق الماء واجترأ بأن يسأل إبراهيم أن يبعث بواحد من الأموات ليطوف بإخوته فيبصرهم بالمصير الذي سيؤولون إليه علهم يتوبون عن غوايتهم. فهو يرى أنه:

«إذا مضى إليهم واحد من الأموات يتوبون. فقال له إن كانوا لا يسمعون من موسى والأنبياء ولا إن قام واحد من الأموات يصدقون»[2].

لوقا ١٦: ٣٠-٣١

* * *

(١) الهاوية من أسماء جهنم، ومن ذلك قوله:
﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾ [القارعة ٨-٩].

(٢) ﴿ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ ﴾. [الأنعام: ١١١].
حشرنا أي جمعنا. وقبلًا جمع قبيل أي فوجًا فوجًا، وفي قراءة أخرى قبلًا بكسر القاف وفتح الباء أي معاينة.

فهل كان إبراهيم هذا امرأً تاريخيًّا عاش حقًّا في الزمن الذي ينسبون إليه أنه عاش فيه أي نحو القرن العشرين ق. م، أي قبيل العهد الذي كانت فيه مصر محكومة بالرعاة، أو هو مجرد شخصية أسطورية اختلقتها الوساوس والأوهام في عصور الظلام؟

الواقع أن علم التاريخ لا يعرف من أمر هذا الرجل شيئًا، فإن سيرة اليهود تبدأ بشاول أول من ملك على العبريين، وقد دام ملكه عليهم ١٥ عامًا بين سنتي ١٠٢٥ ق. م و ١٠١٠ ق. م وخلفه على كرسي العرش داود بن يسى، وكان في أول أمره يعمل في خدمة الملك يدق له «الزار» لتسكين جأش العفاريت التي ركبته[١].

١ - وقصارى القول أن جميع قصص البطارقة والأنبياء الذين عاشوا بين أظهر العبريين قبل شاول وداود، وفي جملتها قصص إبراهيم ولوط وإسماعيل ويعقوب ويوسف وموسى، هي -فيما يرى علماء التاريخ- لا تعدو أن تكون أساطير لا تمتّ إلى علم التاريخ.

---

(١) فقد ألقى الكهنة وعملاؤهم من حاشية القصر في روع شاول أنه أضاع ما كان له من حظوة عند الرب وأن الرب سلط عليه روحًا شريرة توشك أن توبقه.

«وذهب روح الرب عند شاول وبغته روح رديء من قبل الرب. فقال عبيد شاول له هوذا روح رديء من قبل الله يبغتك فليأمر سيدنا عبيده قدامه أن يفتشوا على رجل يحسن الضرب بالعود ويكون إذا كان عليك الروح الرديء من قبل الله أنه يضرب فتطيب فقال شاول لعبيده انظروا لي رجلًا يحسن الضرب وأتوا به إلي. فأجاب واحد من الغلمان وقال هو ذا قد رأيت ابنًا ليسى البيتلحمي يحسن الضرب وهو جبار بأس ورجل حرب وفصيح ورجل جميل والرب معه. فأرسل شاول إلى يسى يقول أرسل إلى داود ابنك الذي مع الغنم. فأخذ يسى حمارًا حاملًا خبزًا وزق خمر وجدي معزى وأرسلها بيد داود ابنه إلى شاول... وكان عندما جاء الروح من قبل الله على شاول أن داود أخذ العود وضرب بيده فكان يرتاح شاول ويطيب ويذهب عنه الروح الرديء».

١ صموئيل ١٦: ١٤ -٢٣

٢- وبين الباحثين من يعتقد أن البطارقة الثلاثة: أبرام وإسحق ويعقوب ليسوا أناسي من البشر، بل هم آلهة ساميون قدامى. وعندهم أن إسحق هو إله الشمس.

٣- وما من سبيل إلى الكشف عن عناصر الصدق فيما نسب إلى هؤلاء البطارقة من رحلات، ويرى بعضهم أن ما يُروى في هذا الباب مُستقى من القصص الشعبية الكنعانية التي كان يتناقلها الأهلون في بلاد كنعان بعد أن وطئها بنو إسرائيل.

٤- وزعم بعض المتدينين الأحامس أن أمرافل ملك شنعار، الذي ينبئنا الإصحاح الرابع عشر من سفر التكوين بأن حربًا قد نشبت بينه هو وحلفاؤه وبين ملكي سدوم وعمورة وحلفائهما وهو (حمورابي) الكبير الذي كان يملك على بابل في منتصف القرن العشرين ق. م[١]، وأن الأسماء التي ذكرت معه هي التي ورد ذكرها في المتون المكتوبة بالخط المسماري[٢]، وهو رأي يقوم على الحدس ولا يستند إلى دليل. يضاف إلى ذلك أن بعض الباحثين يرون أن ذلك الإصحاح ليس وثيقًا في عبريته، وأنه قد يكون منقولًا عن البابلية.

وعند المؤرخ سايس وغيره أن قصة اشتراك أبرام فيما شب من حروب بين ملوك فلسطين على عهد حمورابي إن هو إلا لغو يلغى.

٥- وهنالك رأي يقول بأن «أبرام» فلسطين هو «براما» الهند. وقد

---

(١) وثم من يعتقد أن ذلك كان نحو سنة ١٧٠٠ ق. م.

(٢) يرجع الفضل في ابتداع الخط المسماري إلى السومريين، أولئك الذين ازدهرت حضارتهم جنوبي العراق قبل المسيح بنحو ٣٥ قرنًا، وهو ملائم للكتابة على الألواح الطينية التي كانوا يصنعونها لهذا الغرض. وقد انتهى عهد السومريين مع نهضة حمورابي وتأسيس بابل.

كان اسم «أبرام» أو «برام» واسع الذيوع في بلاد فارس، كما كان ذائعًا في بلاد يهوذا. وبما أن العبريين في ذلك الوقت لم يعدوا أن يكونوا جماعات متبربرة تكتنفهم ممالك معرفة في الحضارة، فقد تطرقت إليهم من تلك الممالك أساطير تأقلمت على مر الزمن فتبنوها وادّعوها وزعموا في غمار ذلك أنهم من ولد أبرام، تلك الشخصية التي تكن لها الشعوب الآسيوية المجاورة كل تبجيل وتعظيم.

٦- وإن اسم «أبرام» نفسه ليثير بعض الشك في تاريخية الرجل فهو يتكون من لفظين عبريين هما «أب» بمعناها في العربية و «رام» أي الأعلى. وإنما سُمِّي الرجل باسم «الأب الأعلى» لأنه المؤسس لأسرة تنتظم كبار أنبياء الأديان السامية (السماوية) الثلاثة الذين تعاقبوا على صولجان النبوة زهاء ٢٦ قرنًا بدءًا بإبراهيم وختامًا بمحمد، فقد خلف إبراهيم إسحق وتلاه يعقوب (إسرائيل) ومن سلالته جاء الملك داود، وداود هو الوالد في الجسد ليسوع المسيح ويرجع كثير من نسابة العرب بنسب نبيهم إلى إسماعيل بن إبراهيم.

وقد شط بعض المستشرقين الأوروبيين فزعموا أن حفاوة القرآن الكريم بإبراهيم هي رجع ورد فعل لما لم يتحقق للنبي من التوفيق إلى تألف اليهود في يثرب[١].

(١) ومن ذلك ما يقوله دكتور فلهلم رودلف أستاذ اللاهوت بجامعة تيبنجن بألمانيا في كتابه «صلة القرآن باليهودية والمسيحية»:

كان محمد في بادئ أمره يعتقد أنه إنما يدعو إلى ما دعا موسى إليه اليهود ودعا عيسى إليه المسيحيين، فلما أقام بالمدينة ولابس «أهل الكتاب» وخيب أمله فيهم أنهم لم يؤمنوا برسالته، كان عليه لكي يواجه معارضتهم له أن يعيد تشييد دينه على دعائم جديدة، وقد وجد العون على ذلك في شخصية إبراهيم الذي يوقره اليهود والمسيحيون على السواء والذي لا يعد خاصًّا بهؤلاء أو أولئك

وجملة القول أنه مهما يكن من ضؤولة المعلومات التاريخية التي تتصل بحياة إبراهيم، فإن وجوده يعد من الوجهة الدينية أمرًا مقطوعًا به، ولهذا فإنَّا سنفحص عن أمر هذا الرجل بحسبانه شخصًا تاريخيًّا عاش حقًّا في الزمان والمكان المذكورين المعينين في الثورة.

* * *

هبط نوح البر عندما انحسر الطوفان، وهبطت معه زوجته وأولاده الثلاثة سام وحام ويافث وزوجاتهم، وتناسل حفدة نوح وكثر عديدهم، فارتحلوا مولين وجوههم صوب المشرق إلى أن حطوا رحالهم في أرض شنعار، حيث شرعوا في بناء برج بابل دون أن يكملوه؛ إذ تبلبلت ألسنتهم وتفرقوا في مختلف أرجاء العالم شيعًا، ولكل جمع منهم لسان من تلك الألسن التي نشأت في ظل ذلك البرج اللغوي. ونجا الكثير من أخلاف سام من محنة تبلبل الألسن فلبثوا يتكلمون العبرية[1].

إذ إنه كان يعيش قبل تنزيل التوراة والإنجيل.

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٥].

وبما أنه لم يكن عنده في تلك الأيام ما يأخذه على اليهود والمسيحيين، فقد أسمى الإسلام «ملة إبراهيم».

﴿ قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾.

[الأنعام: ١٦١]

«ثم زعم أن الكعبة في مكة إنما بناها إبراهيم وابنه إسماعيل» اهـ. إلى آخر تلك الآراء التي تصدر عن قصور في الإلمام بخصائص البيئة العربية وعن قياس سير الأمور في الجزيرة العربية -تبعًا لذلك- على مثيلتها في البلاد الأوروبية.

(١) كان أهل بابل فيما غبر من الزمان يتكلمون الأكدية، وكان أهل الجليل يتكلمون العبرية، والعرب الشماليون يتكلمون الآرامية، وكانت الآرامية في سورية وفلسطين سابقة لكل من اللسانين الكنعاني والعبري.

١- وقد أقام تارح[١] أبو إبراهيم في بلاد وصفها «العهد القديم» بكلمة «عبر النهر».

«آباؤكم سكنوا في عبر النهر منذ الدهر. تارح أبو إبراهيم وأبو ناحور عبدوا آلهة أخرى».

يشوع ٢٤: ٢

٢- واستقر القوم في أور الكلدان[٢] على الشاطئ الغربي للفرات حيث ولد أبرام وناحور وهاران، بيد أن هاران والد لوط لم يمتد به العمر فمات قبل أبيه تارح.

وتزوج إبراهيم أخته لأبيه[٣] سارای.

٣- وشد تارح أبو أبرام وجد لوط، هو وعشيرته رحالهم من أور إلى حاران، وهي أقل منها مدنية وحضارة وأقاموا بها لا يبرحونها إلى أن مات تارح.

٤- وارتحل القوم بعد ذلك إلى كنعان، ووعده ربه أن يسكنه هو

---

(١) جاء في القرآن الكريم أن أبا إبراهيم يُدعى آزر.

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٧٤].

(٢) كان اسم كلدانيا فيما مضى يُطلق على أقصى القسم الجنوبي من وادي دجلة والفرات، وكان يتسع أحيانًا فيشمل بابل، وبذلك يضم كل جنوب أرض الرافدين.

(٣) تكوين ٢٠: ١٢.

ومن ذلك قصة اغتصاب أمنون بن داود لأخته غير الشقيقة ثامار وقولها له:

«والآن كلم الملك لأنه لا يمنعني منك. فلم يشأ أن يسمع لصوتها بل تمكن منها وقهرها واضطجع معها».

٢ صمويل ١٣: ١٣ -١٤

يبدو أن الأخت غير الشقيقة كان ينظر إليها على أنها غير مكتملة الأخوة فلا على أخيها أن يتخذها خليلة ويبنى بها.

وذريته بلاد كنعان أبد الأبيد.

٥- ولكنه لم يبد ثقة بذلك الوعد، ولم تطب له الإقامة في أرض الميعاد التي طالما وصفها يهوه بأنها تفيض لبنًا وعسلًا، وأشفق أن تجهده فيها المخمصة، فاستقر رأيه بعد إمعان الذهن وإنعام النظر على الهرب من شظف العيش إلى حيث الشبع والراحة.

والعيش خير في ظلال الـ نـــوك ممن عــاش كدًّا

وإن لدى إبراهيم من الوسائل الناجعة ما يجعله حريًّا ببلوغ الثراء من أقصر الطرق إليه، ولهذا امتطى راحلته النجيبة واحتقب امرأته الحبيبة، وانحدر إلى مصر الزاهرة بالزرع، الزاخرة بالضرع، الملأى بالنضار واللجين.

وأقر في أذن زوجته الحسناء، وهو في طريقه إلى مصر، أن تخفي زوجيتها له:

«قولي إنك أختي. ليكون لي خير بسببك وتحيا نفسي من أجلك». تكوين ١٢: ١٣

لقد كان على بصر بأن امرأته لا ضريب لها في ملاحتها، فهي أعز من أن يضرب دونها حجاب أو يوصد في وجهها باب. وقد صدق حدسه.

«فأخذت المرأة إلى بيت فرعون فصنع إلى أبرام خيرًا بسببها. وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأتن وجمال»[1].

تكوين ٢: ١٥ -١٦

(١) لاحظ كيف أن الكاتب وضع العبيد والإماء بين الحمير والأتن.

وقد قرت عينه بما أفاءت عليه الرحلة الميمونة، ولهذا ثنى برحلة أخرى مماثلة في ملابسات مماثلة، إذ انحدر بامرأته صوب الجنوب حتى حطا رحالهما في مملكة جرار.

«وقال إبراهيم عن سارة امرأته هي أختي. فأرسل أبيمالك ملك جرار وأخذ سارة»[1].

تكوين ٢٠: ٢

ويبدو أن ذلك كان هو المسلك الطبيعي في تلك الأيام.

«فأخذ أبيمالك غنمًا وبقرًا وعبيدًا وإماء وأعطاها لإبراهيم».

تكوين ٢٠: ١٤

وقد أغفل كتاب سفر التكوين أن يبينوا لنا كم كان عمر تلك الغادة التي أذهلت بجمالها الأخاذ ملوك الشرق الأدنى، فبذلوا لزوجها ما جعله يغدو من ذوي الثراء ويرتدي الطيلسان[2] الأرجواني[3]. بيد أنَّا نستطيع أن نستنبط ذلك من الأرقام المبعثرة التي وردت عرضًا في سياق القصة.

١- رزق تارح عندما أتى لتارح من العمر ٧٠ عامًا رزق بابنه إبراهيم.

---

(١) وقد استن تلك السنة النبوية الكريمة، إذ نزلت بالبلاد في عهده مجاعة فلم يتوان أن اصطحب امرأته الجميلة رفقة (ربكا) إلى جرار ونزلا في رحاب ملكها أبيمالك فأجزل الملك عطاءه.

«فتعاظم الرجل وكان يتزايد في التعاظم حتى صار عظيمًا جدًّا. فكان له مواشٍ من الغنم ومواشٍ من البقر وعبيد كثيرون».

تكوين ٢٦: ١٢ -١٤

(٢) الطيلسان: كساء مدور أخضر يلبسه العلماء والمشايخ وهو من لباس العجم.

(٣) الأرجوان: معربة عن الفارسية: صبغ أحمر وثياب حمر. كان حملة الألقاب وذوي التيجان من أشراف أوروبا في القرون الوسطى يرتدون الطيلسان الأرجواني في الحملات الرسمية.

«وعاش تارح سبعين سنة وولد أبرام وناحور وهاران».

تكوين ١١: ٢٦

بيد أن هاران والد لوط لم يتراخ به العمر فقضى قبل أبيه تارح.

وتزوج أبرام أخته سارای كما أسلفنا.

٢- ثم انتقل تارح وأبرام ومن إليهم إلى حاران وأبلدوا بها إلى أن لفظ تارح أنفاسه وقد ناهز من العمر ٢٠٥ سنة.

«كانت أيام تارح مئتين وخمس سنين ومات تارح في حاران».

تكوين ١١: ٣٣

٣- ويؤخذ من ذلك أن أبرام عاش في كنف أبيه ببلدة حاران ٢٠٥ - ٧٠ = ١٣٥ سنة.

٤- ثم خرج القوم من حاران إلى كنعان، وإذن فإبراهيم كان قد ناهز من العمر ١٣٥ سنة عندنا خرج من حاران، لولا أن التوراة عادت فاختزلت هذا الرقم وأكدت أنه لم يكن عندئذ قد يجاوز ٧٥ ربيعًا.

«كان أبرام ابن خمس وسبعين سنة لما خرج من حاران».

تكوين ١٢: ٤

فليكن الأمر كذلك.

٥- فلما استشرت المجاعة بعد بضعة أعوام في تلك الأنحاء وهبط أبرام مصر كان قد ذرف على ٨٠ عامًا.

٦- وعندما أوفى على المائة من عمره، بشره الرب بأنه سيرزق ابنه إسحق.

«فسقط إبراهيم على وجهه وضحك. وقال في قلبه هل يولد لابن مئة سنة وهل تلد سارة وهي بنت تسعين سنة».

تكوين ١٧: ١٧

٧- وبما أن سارة تصغر إبراهيم بعشر سنوات، فقد كانت تناهز السبعين من عمرها عندما افتتن بها فرعون مصر وكانت في التسعين من عمرها عندما تولع بها ملك جرار لما أخذها إليه زوجها. وقد ألفنا أن نرى النساء في هذه السن شيخات طواعن في السنِّ وسمهن حدثان[١] الزمان بالغضون والتجاعيد، فكيف تدله بسارة أولئك الملوك العظماء الذين تتهالك عند أقدامهم العذارى من حرائر وإماء؟

من الواضح أن ذلك لم يكن وليد خلل في عقول الرجال أو فساد في أمزجتهم، ولكنه كان وليد اضطراب في كيان القصة.

٨- لقد كان إبراهيم غير محق في ضحكه عندما سمع البشارة، فإن امرأته لم تلبث أن جاءته في شيخوخته بولد يُدعى إسحق، وعندما فصلت الأم ولدها عن الرضاع، كان ذلك بفصلها إسماعيل وأمه عن البلاد.

وكبر إسماعيل فزوجته أمه المصرية زوجة من أرض مصر، وكذلك كبر إسحق فغدا غلامًا يفعًا.

كانت عبادة الأصنام فاشية في تلك الأيام. وكان ثم عديد من الآلهة يقرب الناس لها قرابين شيطانية، وسواء كانت الأصنام مجسدة أو مجردة، فقد كان الناس لا يضنون عليها بالأضحيات الحيوانية والبشرية.

---

(١) حدثان الدهر (بكسر فسكون) وحدثانه (بفتحتين): نوائبه، قال:

لا يبعد الله إخوانًا لنا ذهبوا أفناهم حدثان الدهر والأبد

لوط

لوط

في جنوب فلسطين بحيرة من نوع غير مألوف غامضة الأصل يذرف طولها على ٦٠ كيلو مترًا، يغذوها نهر الأردن بما يفيض من مائه، بيد أن أوار الشمس يعمل من الجهة الأخرى على تجفيفها بما يبخره من مائها. وماؤها صاف غير أنه كثيرًا ما يطفو على متنه الأسفلت أو الحمر (وهو ضرب من القار المعدني) فيخلع عليها منظرًا جهمًا كئيبًا. ولا تنبعث من هذا الماء رائحة ما، ومع ذلك فهو كريه كأنه محلول الشب (أحد أملاح الألومينيوم)، وهو مشبع بالملح ومشوب بحامضي الكلورودريك والكبريتيك، فإذا سقط فيه إنسان أو ابتل به أصابت جلده حكة موجعة، فإن كانت بجسمه جروح أو قروح نجمت عنها آلام مبرحة. وهذه البحيرة بطبيعة الحال غير عامرة بالسمك، وثم من يغالون فيزعمون أن الطيور التي تحلق فوق صفحتها لا تلبث أن تتهاوى صرعى لا حياة فيها، ولذلك كانت هذه البحيرة جديرة باسمها المعروف: البحر الميت.

وتكتنف هذه البحيرة سهول مجللة بملح نترات البوتاسيوم، تتخللها بلاد قليلة جرداء ضئيلة العمران. وقد انتصبت على تل سدوم أعمدة من الملح وافرة العدد، طالما سبح فيها خيال الناس فخالوها أناسي متحجرة.

والجانب الشمالي من البحيرة بعيد الغور، على حين أن جنوبيها بالغ الضحالة، ويتكون قاعها من رقعتين يتباينان في درجة الارتفاع؛ ولهذا جمع الخيال ببعضهم فأنشأوا يقولون إن الرقعة الوطيئة هي القاع الأصلي للبحيرة، أما الرقعة المرتفعة فيرجع ارتفاعها إلى ما تراكم فوق قاعها الأصلي من أنقاض مدينتي سدوم وعمورة المدينتين اللتين كانتا هناك، ثم طمس عليهما ماء البحيرة، وهي دعوة ظاهرة البطلان.

وقد شاعت حول هذا الإقليم حكايات طريفة، وزعم بعض الكاتبين الأقدمين من إسرائيليين وغير إسرائيليين أن الحيز الذي تغطيه البحيرة في الوقت الراهن كان يشغله فيما مضى إقليم به مدن شتى منها اثنتان تدعيان سدوم وعمورة، إلا أن هذا الإقليم ما نشب أن دمرته الزلازل وحرقته نيران مندلعة من باطن الأرض. وفي الحق أن ما في البحيرة وما هو على مقربة منها من مقادير القار العظيمة، لدليل على ما لهذا الإقليم من طبيعة بركانية وأثر من آثارها.

ويفرض بعض العلماء أن البحيرات الثلاث ميروم وطيبريا وأسفلتيت ونهر الأردن هي بقايا خليج كبير كان يتصل بالبحر الأحمر قبل أن ترتفع الأرض في تلك الأرجاء بانقلاب جيولوجي فتقوم برزخًا بينها وبين البحر، ومن ثم كان النشاط البركاني هو علة الظاهرة التي

تسترعي النظر في ذلك الإقليم. أما قصة مدن السهل فما هي إلا أسطورة من الأساطير التي كان الأقدمون يتناقلونها عندما يرون مشهدًا مؤثرًا.

وكثرة الحمر في تلك الأصقاع. وهو يشتمل على النفط، يجعل هذه الظاهرة محتملة التصديق. وليس من اليسير محو أثر التخريب الخطير الذي لحق هذا الإقليم من ثورة الطبيعة العارمة. ومما لا ريب فيه أن تدمير سدوم وعمورة إنما كان نتيجة دمار القشرة الأرضية التي بنيتا عليها والتي كانت تفصلهما عن بحيرة من الكبريت السائل وهو ما يطابق معلوماتنا عن البلاد ذات البراكين والحمر.

وقد نجت من هذا المصير القاسي شقة من الأرض كانت تقوم عليها المدينة الصغيرة «صوغر»؛ إذ إن هذه الشقة كانت نشازًا (أي مرتفعة ناتئة) فهي أشبه شيء بهضبة تعلو على ما يجاورها، فإذا ما اندلعت ألسنة اللهب في الوادي أو غمرته لجج البحر المتلاطمة، ظلت هذه الهضبة بمنجاة من النار وعصمة من الماء.

ولكن القوم في ذلك الزمن الغابر لم يكونوا ينتهجون في تفكيرهم هذا المنهج، بل كانوا يتمثلون في كل ما تحدثه يد الطبيعة العاتية من تخريب وتدمير وما تنزله ببني البشر من كوارث ونوائب يد الإله المنتقم يؤدب عبيده في هذه الحياة، وكانوا لا يعلمون ما الحياة الأخرى، ولذلك وجدوا في مشهد الثورة الطبيعية التي دكت قرى قوم لوط وأحالتها خرابًا يبابا –غذاء كافيًا للتخيل، ورأوا في نجاة صوغر آية عناية إلهية.

ولكن من الطبيعي أن يتساءل الناس: لِمَ أخرب الله هذين البلدين ونكَّل بأهلهما؟

وكان من الطبيعي أيضًا أن يكون جواب تساؤلهم أن هذا النكال كان عقابًا لهم على ما اقترفوا من معاص[1].

فيعود الناس يتساءلون: وما عسى أن تكون تلك المعاصي الجسام التي استوجبت ذلك الانتقام؟

والجواب هو أن أوخم المعاصي جميعًا هو الزنا.

ويستأنف القوم تساؤلهم: ولكن الزنا متفشٍّ بكل مكان، فلم لم تلاق مدينة أخرى مثل هذه العقبى؟

والجواب هو أن الزنا هنا يبذ ضروب الزنا في سائر الأمصار قباحة وبشاعة، فقد تفاقم الشذوذ وغلب اللواط والسحاق على النكاح المشروع.

* * *

وبعد فلنلق نظرة على قصة تينكم المدينتين كما روتها التوراة:

مات هاران والد لوط في مسقط رأسه بأور الكلدانيين قبل أن يموت «تارح» والد هاران أي جد لوط، ففصل تارح من أور الكلدانيين مستصحبًا:

---

(١) يرى بعض الشراح في تفسير الآية:
﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴾ [هود: ٨٢].
أن أهل سدوم وعمورة قد أهلكوا بكسارة من القرميد مشوية في جهنم، كل كسرة منها تحمل اسم الشخص الذي يهلك بها، حتى إن أبناء سدوم الذين كانوا إبان الكارثة قد خرجوا إلى الريف على مبعدة من المدينة ضربوا هم أيضًا على رؤوسهم. وذكروا أن أحد السدوميين هرب إلى معبد كان قد بناه إبراهيم وأقام به أربعين يومًا في أمن وطمأنينة، فلما هم بالخروج لم يكد يبرز رأسه حتى دمغه الحجر المُعَدّ له فأرداه قتيلًا.

ابنه أبراهام.

وكنته سارای.

وحفيده لوطًا بن هاران.

وحط الجميع رحالهم في أرض كنعان، حيث شيدت مدينة حاران التي سميت باسم هاران.

وقحط الموطن الجديد وأجدبت العشيرة فانحدروا إلى مصر يسترفدون[١] فرعون.

وخلا أبراهام في الطريق بامرأته سارای وأقر في أذنها قوله:

«قولي إنك أختي[٢] ليكون لي خير بسببك وتحيا نفسي من أجلك. فحدث لما دخل أبرام إلى مصر أن المصريين رأوا المرأة أنها حسنة جدًّا. ورآها رؤساء فرعون ومدحوها لدى فرعون، فأخذت المرأة إلى بيت فرعون فصنع إلى أبرام خيرًا بسببها. وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء[٣] وأتن وجمال».

تكوين ١٢: ١١ -١٩

---

(١) استرفده: استعطاه.

(٢) «وبالحقيقة أيضًا هي أختي ابنة أبي غير أنها ليست أمي».

تكوين ٢٠: ١٢

وقد عدّ موسى مثل هذا الزواج عملًا من أعمال الخنا.

«وإذا أخذ رجل أخته بنت أبيه أو بنت أمه ورأى عورتها ورأت هي عورته فذلك عار. يقطعان أمام أعين بني شعبهما. قد كشف عورة أخته. يحمل ذنبه».

لاويون ٢٠: ١٧

(٣) لاحظ أنه ذكر العبيد والإماء بين الحمير والأتن.

ورجع أبو المؤمنين إلى فلسطين سالمًا غانمًا، عظمت خيامه وكثرت أغنامه، وكذلك ظفر ابن أخيه لوط بأغنام وخيام، وغير اليسار من علاقة العم بابن الأخ، فتولدت بينهما الإحن وتعددت المشادات وتطور الاحتكاك وطال بين عمالهما الاحتكاك فأدى بهم إلى المشاغبات. لقد اتسعت أملاك الرجلين فضاق كل منهما بأخيه.

«ولم تحتملهما الأرض أن يسكنا معًا. إذ كانت أملاكهما كثيرة. فلم يقدرا أن يسكنا معًا».

تكوين ١٣: ٦

فدعا أبراهام لوطًا إلى أن يفاصله[١]، وقال له:

«اعتزل عني. إن ذهبت شمالًا فأنا يمينًا وإن يمينًا فأنا شمالًا».

تكوين ١٣: ٩

وتعازل القريبان. فوصل أبراهام إلى أرض كنعان وقصد لوط إلى الأردن واختار أن يضرب أطنابه[٢] في تلك البلدة التي استحالت ماخورًا للزنا ومباءة[٣] للخنا، والتي أوغلت في التهتك وأبعدت في الانحراف.

ونشبت حرب بين ملوك تلك البقاع حَمِي وطيسها بين ٤ متحالفين منهم[٤] و٥ من خصومهم، وباء بالهزيمة ملكا سدوم وعمورة ومن إليهما فأخرب المنتصرون ما في بلادهما من عقار ومقتنيات وغنموا

(١) فاصل شريكه: باينه وفض ما بينهما من شركة.

(٢) الطنب: حبل طويل يشد به سرادق البيت أو الوتد. خباء مطنب أي مشدود بالأطناب.

(٣) البيئة والمباءة: المنزل.

(٤) نذكر في مقدمتهم أمرافل ملك شنعار الذي يذهب بعضهم إلى أنه هو حمورابي الكبير ملك بابل وذلك حدس لا دليل عليه.

ما وصلت إليه أيديهم من فيء[1] واحتازوا الجم الغفير من الأسراء والسبايا[2] بينهم لوط وأهل بيته. وتناهى الخبر إلى أبرام فما ونى أن جهز غلمانه المدربين على المغازي، واستطاع بهم، وهم لا يعدون ثلاثمائة ونيفًا، أن يمني قوى الملوك المتحدين المظفرة بهزيمة منكرة، وأن يستعيد ابن أخيه ويعيد إليه ما كان قد سلبه من مقتنيات ونساء، فعاد إلى بلدته الأثيرة سدوم وأوطن بها من جديد.

ودبت الحياة في سدوم وعمورة فاستأنفنا ما كانتا تعجان به من عربدة وفجور، وتعالت فضائحهما الصاخبة إلى عنان[3] السماء، فرأى الرب لزامًا عليه أن ينزل إليهما ليخبر بنفسه حالتهما ويطلع على سير الأمور فيهما.

«وقال الرب إن صراخ سدوم وعمورة قد كثر وخطيتهم قد عظمت جدًّا. أنزل وأرى هل فعلوا بالتمام حسب صراخها الآتي إليَّ وإلا فأعلم».

تكوين ١٨: ٢٠ -٢١

١- فما حاجته بهذه الرحلة الاستطلاعية وهو العليم الذي ليس لمعرفته حد؟

٢- ولِمَ النزول إلى المدينتين وهو فيهما من أول الأمر؟

---

(١) الفيء: الغنيمة.

(٢) يغلب أن يختص «الأسر» بالرجال و«السبي» بالنساء، وعلى ذلك قول الشاعر:

فعادوا بالغنائم حافلات وعدنا بالأسري والسبايا

(٣) العنان: السحاب -وعنان السماء: ما بدا لك منها إذا نظرت، وما علا منها وارتفع.

٣- وفيم يسائل نفسه:

«هل أخفي عن إبراهيم ما أنا فاعله».

تكوين ١٨: ١٧

وهو قد اختار كل شيء واستقر رأيه على كل أمر؟

٤- ولما أنذر بشن الخراب في تلك الأرجاء وتدمير مدينتي الفسق والفجور، أنكر خليله منه ما اقتضته مشيئته وسأله معاتبًا:

«أديان كل الأرض لا يفعل عدلًا».

تكوين ١٨: ٢٥

وخامر أبرام القلق على مصير ابن أخيه فطفق يستحث ربه على حقن دم الأهلين في تلك الأنحاء من أجل من فيها من البررة الصالحين ولعل عدتهم تبلغ الخمسين، ثم لم ينفك يماكسه[٤] بتلك البراعة التي أورثها أخلافه بني إسرائيل حتى هبط بعدد البررة الذين يساوم بهم على إنقاذ المدينتين فإذا هو ١٠. وأقر يهوه هذه المساومة وهو مستيقن أن تلك الأنحاء المغتصة بالمواخير لا تضم من الأخيار الصالحين غير لوط وابنته وهم غير كفاة لإعفاء المدينتين الصالحتين من مصيرهما المحتوم.

٥- «وذهب الرب عندما فرغ من الكلام مع إبراهيم ورجع إبراهيم إلى مكانه».

تكوين ١٨: ٣٣

(٤) ماكسه في البيع: شاحه واستحطه الثمن واستنقصه إياه.

٦- وعدل يهوه عما كان قد عقد العزم عليه من النزول إلى مباءة الفسق والفجور، واكتفى بأن أرسل إليها اثنين من ملائكته فبلغاها وقد آذنت الشمس بالمغيب:

«فجاء الملكان إلى سدوم مساء».

تكوين ١٩: ١

٧- وهش لهما لوط وخف لاستقبالهما مرحبًا ودعاهما في أريحية محمودة إلى الثواء عنده، فأبديا في أول الأمر شيئًا من التأبي مما ينبئ بأنهما قرأا كتابًا في آداب السلوك، حتى إذا ما ألحف عليهما في ذلك استجابا لدعوته مغضبين:

«فقالا بل في الساحة نبيت. فألح عليهما جدًّا فمالا إليه ودخلا بيته. فصنع لهما ضيافة وخبز فطيرًا فأكلا».

تكوين ١٩: ٢-٣

لقد كانت معدتاهما مكتظتين بما أفعمهما به إبراهيم في الإصحاح السابق من المغلظات[١]؛ ولهذا طابت نفساهما هذه المرة بتلك العجالة[٢] الخفيفة التي قراهما بهما نبي الله.

٨- وجاش جأش الشعب الذي يحكمه يهوه واستبد به الشبق فجعلوا يتنادون ويتناقلون النبأ المثير، ثم انثالوا على بيت لوط وهم

(١) «ثم أخذ زبدًا ولبنًا والعجل الذي عمله ووضعها قدامهم. وإذ كان هو واقفًا لديهم تحت الشجرة أكلوا».

تكوين ١٨: ٨

(٢) العجالة: ما حضر من الطعام و -ما يعجل للضيف منه و- ما تزوده الراكب مما لا يتعبه أكله كالتمر والسويق، ومنه المثل «التمر عجالة الراكب».

يتنفطون من الشهوة العارمة التي تعتمل بين جوانحهم، وكأنما صح في وهمهم أنهم يستطيعون أن يستمتعوا جميعًا بتداول الضيفين الوسيمين، فأنشأوا يبدون من الرغبات، ويثيرون من المشاغبات ما لا نشهد له في هذا العصر نظيرًا بين الشعوب التي يحكمها أناس من بني الإنسان، ويا له من مسلك يثير الدهش ويبعث على الاشمئزاز. وقد نادوا لوطًا وأفصحوا له عن بغيتهم قبل أن يدلف إليهم.

«فخرج إليهم لوط إلى الباب وأغلق الباب وراءه. وقال لا تفعلوا شرًّا يا إخوتي. هو ذا لي ابنتان لم تعرفا[1] رجلاً. أخرجهما إليكم فافعلوا بهما كما يحسن في عيونكم. وأما هذان الرجلان فلا تفعلوا بهما شيئًا لأنهما قد دخلا تحت ظل سقفي».

تكوين ١٩: ٦ -٨

لقد آثر الرجل الكريم أن يفرط في شرف كريمتيه على أن يخل بكرم الضيافة، وبذلك حافظ على قانون الضيافة المقدس بتدنيس قانون آخر أكثر منه قدسية هو قانون المحافظة على العرض، ولا غرو في ذلك فإن المرأة، في نظر أولئك الهمج، لم تكن تعدو أن تكون آلة لإنتاج الولد. ومن الجلي أنه حين عرض على الجمهور المغتلم أن يفترع ابنتيه

(١) جرى الكتاب المقدس على استعمال كلمة المعرفة بمعنى المضاجعة، ومن ذلك قوله: «وعرف قايين امرأته فحبلت وولدت حنوك».

تكوين ٤: ١٧

وفي معجم أقرب الموارد تعارف الزوجان: تجامعا.
وهذا وليس غريبًا أن تنضج الفتاتان وتمتلآن أنوثة وهما مع ذلك لم تعرفا أحدًا من الرجال لأن الرجال هناك يعزفون عن الإناث.

لم يكن يتحدث عن زواج شرعي، بل عن قضاء ليلة حمراء صاخبة غايتها اللهو والمجون. هذا واضح من سياق الكلام، وهو أكثر وضوحًا في حادثة مماثلة حدثت بعد ذلك بسبعة قرون أو ثمانية[1].

«في تلك الأيام حين لم يكن ملك في إسرائيل».

قضاة ١٩: ١

(١) ذلك أن رجلاً من اللاويين كان متغربًا في عقاب جبل إفرايم سافر إلى بيت لحم يهوذا ليحضر سرية (أي جارية مملوكة) له من بيت أبيها هناك، فلما كانا في طريق العودة أدركهما الليل وهما في مدينة جبعة التي لبنيامين. وضيفهما شيخ من أهل المدينة فمالا إلى بيته، وعندئذ حدث هناك مثل ما حدث قبل في سدوم.

في سدوم	في جبعة
سفر التكوين إصحاح ١٩	سفر القضاة إصحاح ٩
٤ - وقبلما اضطجعا أحاط بالبيت رجال المدينة رجال سدوم.	٢٢ - وفيما هم يطيبون قلوبهم إذا برجال المدينة رجال بني بليعال أحاطوا بالبيت.
٥ - فنادوا لوطًا.	قارعين الباب وكلموا الرجل صاحب البيت الشيخ.
وقالوا له أين الرجلان اللذان دخلا إليك الليلة. أخرجهما إلينا لنعرفهما.	قائلين أخرج الرجل الذي دخل بيتك فنعرفه.
٦ - فخرج إليهم لوط وأقفل الباب وراءه.	٢٣ - فخرج إليهم الرجل صاحب البيت.
٧ - وقال لا تفعلوا شرًّا يا إخوتي.	وقال لهم لا يا إخوتي لا تفعلوا شرًّا.
٨ - هوذا لي ابنتان لم تعرفا رجلًا. أخرجهما إليكم فافعلوا بهما كما يحسن في عيونكم.	٢٤ - هو ذا ابنتي العذراء وسريته دعوني أخرجهما فأذلوهما وافعلوا بهما ما يحسن في أعينكم.
وأما هذان الرجلان فلا تفعلوا بهما شيئًا لأنهما قد دخلا تحت ظل سقفي.	بقية ٢٣ - بعدما دخل هذا الرجل بيتي لا تفعلوا هذه القباحة.

ولم يكن مصير تلك السرية هينًا لينًا كمصير ابنتي لوط، فقد تناسى سيدها أنه هو الذي دفع بها مكرهة إلى الفسق.

«ودخل بيته وأخذ السكين وأمسك سريته وقطعها مع عظامها إلى اثنتي عشرة قطعة»...

قضاة ١٩: ٢٩

ولم يبق في قوس الصبر الملائكي منزع[1]، فمد الملكان أيديهما واجتذبا لوطًا إلى جو[2] البيت وأقفلا الباب من داخل وضربا الجمهور الذي يحاول اقتحام البيت بالعمى، فتعذر عليه الاهتداء إلى الباب[3] وأنذرا لوطًا بأن المنطقة كلها وشيكة الدمار، وحثاه على النجاء بنفسه وتدارك أهله إذ كان حقًّا عليهما استنقاذ الأسرة النبوية الكريمة كما أنجيا أسرة نوح من غائلة الطوفان.

«فخرج لوط وكلم أصهاره الآخذين بناته وقال قوموا اخرجوا من هذا المكان لأن الرب مهلك المدينة. فكان كمازح في أعين أصهاره».

تكوين ١٩: ١٤

ويُفهم من ذلك أن لوطًا كانت له بنات كثيرات، وأنهن كن ذوات أزواج، ولكنه وصف ثنتين من بناته بأنهما «لم تعرفا رجلًا» فإذا أردنا التوفيق بين القولين وجب أن نعتقد أن ابنتيه هاتين تزوجتا حقًّا، ولكن زوجيهما لم يبنيا بهما، فبقيتا عذراوين. وساق الملكان لوطًا وأسرته إلى خارج المدينة.

١٦- ولما توانى أمسك الرجلان بيده وبيد امرأته وبيد ابنتيه لشفقة

---

(١) المنزع: السهم الذي ينزع به.

(٢) جو كل شيء: بطنه وداخله.

(٣) عن ابن مسعود عن ناس من أصحاب النبي ﷺ لما قال لوط:
﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠].
حينئذ بسط جبرائيل جناحه ففقأ أعينهم وخرجوا يدوس بعضهم في آثار بعض عميانًا يقولون النجاء النجاء فإن في بيت لوط أسحر قوم في الأرض، فلذلك قوله تعالى:
﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ [القمر: ٣٧].

الرب عليه وأخرجاه ووضعاه خارج المدينة.

١٧- وكان لما أخرجاهم إلى خارج أنه قال اهرب لحياتك. لا تنظر إلى ورائك ولا تقف في كل الدائرة. اهرب إلى الجبل لئلَّا تهلك.

١٨- فقال لهما لوط لا يا سيد[١].

١٩- هو ذا عبدك قد وجد نعمة في عينيك... وأنا لا أقدر أن أهرب إلى الجبل».

تكوين ١٩: ١٦ -١٩

وآثر الرجل أن يلوذ بمدينة بالع الصغيرة التي سميت باسم صوغر[٢].

ووافق الملكان، أو بالأحرى الرب المتخفي فيهما، على ذلك وأمهلاه حتى فصل هو وأسرته إلى صوغر، ثم أدار يهوه جهاز إنزال المطر فشرع يعمل بكامل قوته:

«فأمطر الرب على سدوم وعمورة كبريتًا ونارًا من عند الرب من السماء»[٣]. تكوين ١٩: ٢٤

---

(١) إننا نلمس في سياق الكلام هنا بعض الاضطراب. فمن ذا الذي أنذر لوطًا بأن «قال اهرب إلى الجبل لئلا تهلك» والذي رد لوط عليه بقوله «لا يا سيد. هو ذا عبدك...» إلخ؟ **Oh, not so, my Lord: Behold now thy sight** المفروض أنه يهوه، وهذا يقتضينا تصويب جملة «لشفقة الرب عليه» بجعلها «وكان الله به شفيقًا».

(٢) «.. وملك بالع التي هي صوغر». تكوين ١٤

(٣) يفهم المسيحيون من كلمة «السماء» (ويقابلها في الإنجليزية **Heaven**) ما نفهمه نحن من كلمة «الجنة» والمفروض أن النار أسقطت من جهنم.

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ [الحجر: ٧٤].

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴾ [هود: ٨٢].

أو لعلها كانت تنبجس من جوف الأرض بقوة منطلقة إلى عنان السماء:

«وإذا دخان الأرض يصعد كدخان الأتون».

تكوين ١٩: ٢٨

أو لعلها كانت تتهاطل من السماء، وتتفجر كذلك من جوف الأرض حممًا وكبريتًا منصهرًا. وقد رأينا في قصة الطوفان أن المياه التي أغرقت الأرض كانت لا تفتأ تأتيها من كل جانب، تنصب من علو وتنبثق من سفل في وقت معًا[١].

«وقلب[٢] تلك المدن وكل الدائرة وجميع سكان المدن ونبات الأرض».

تكوين ١٩: ٢٥

---

(١) «انفجرت كل ينابيع الغمر وانفتحت طاقات السماء».

تكوين ١٧: ١١

(٢) ولذلك تسمى قرى قوم لوط بالمؤتفكات أي المنقلبات. يقال ائتفكت البلدة بأهلها: انقلبت.

وقد رووا عن وهب بن منبه أنه قال:

... فأدخل ميكائيل وهو صاحب العذاب جناحه حتى بلغ أسفل الأرضين فقلبها.

وعن السدي، قال:

«لما أصبح قوم لوط نزل جبرائيل عليه السلام واقتلع الأرض من سبع أرضين فحملها حتى بلغ بها السماء الدنيا حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم وأصوات ديوكهم ثم قلبها فقتلهم، فذلك حين يقول: «والمؤتفكة أهوى».

وعن قتادة قال:

«بلغنا أن جبرائيل عليه السلام أخذ بعروة القرية الوسطى ثم ألوى بها إلى السماء حتى سمع أهل السماء ضواغي كلابهم (أي نباحها) ثم دمر بعضها على بعض فجعل عاليها سافلها ثم أتبعتهم الحجارة.

قال قتادة:

«وبلغنا أنهم كانوا أربعة آلاف ألف».

ويلاحظ أن كلمة «السماء» في الروايتين تستعمل بمعنى الجنة مما يومئ بمصدر القصة.

وقد نجا لوط وامرأته وابنتاه اللتان «لم تعرفا رجلًا» من ذلك المصير المروع الذي أوقعه يهوه بسدوم وعمورة في نوبة من نوبات غضبه، فكان عدد الناجين من الاحتراق بالنيران ٤ أي نصف عدد الذين نجوا من الموت غرقًا بالطوفان. غير أن أولئك الأربعة لم يلبثوا أن نقص عديدهم فساروا ٣.

ذلك أن لوطًا شخص هو وامرأته وابنتاه إلى صوغر، مخلفين البلدة من ورائهما تعج بالانفجارات والانهيارات وتندلع من مبانيها ومغانيها ألسنة النيران.

وبدرت من امرأة لوط لفتة إلى ذلك المشهد الفريد، فأسخطت هذه الحركة الطبيعية يهوه فسخط[١] المرأة.

«فصارت عمود ملح».

تكوين ١٩: ٢٦

ومعنى ذلك في لغة العلم أن اللحم والدم استحالا كلوريد الصوديوم[٢].

الكلام هنا واضح لا يحتمل تمحل المتمحلين ولا تأول المتأولين

---

(١) سخطه و –عليه: غضب ولم يرض.

(٢) كان الناس في عصر هوميروس لا يزالون يشاهدون **Niobe** التمثال الذي صارت إليه «نبوب» عندما شاهدت أبولو وأخاه أرتميس يذبحان أبناءها الاثني عشر. لأنها كانت تباهي أمهما لايتو زوجة زيوس بكثرة بنيها. وقد لبثت تبكي حتى استحالت تمثالًا من الحجر كان هو أيضًا تنهمر منه الدموع. وكان الناس في القرن الأول من الميلاد لا يزالون يشهدون عمود الملح الذي صارت إليه امرأة لوط، فقد كتب المؤرخ الشهير يوسفس يقول: «لقد استحالت عمودًا من الملح، لا يزال باقيًا حتى اليوم وقد رأيته». ومع ذلك. لم يخطر ببال أحد من أمراء أوروبا أو أمراء الكنيسة فيها أن يرسل بعثة لاكتشاف هذا الأثر الخالد.

ممن يقولون إنها اختنقت بالدخان والأبخرة الكبريتية لتباطؤها في مغادرة المدينة، ومن يرون أن التعليل الوحيد المقبول لمثول عمود من الملح ذي شبه بالإنسان، هو أن جسد امرأة لوط قد تخللته العناصر الملحية التي كان الهواء مشبعًا بها، وممن يدلون بمثل ذلك من التفسيرات التي هي وليدة إفراط في الذكاء وتفريط في الضمير.

* * *

هذا ختام قصة تلك العشيرة التي جمحت بها شهواتها فتنكرت لربها ولجت في غيها، فعاقبها الله على العصيان نكال الآخرة والأولى، وهي قصة محبوكة فحواها أنه لا ينبغي للمرء أن ينقاد لشهواته أو يحيد عن الطريق السوي، وأن رأس الحكمة مخافة الله، وهو فحوى مقبول لما فيه من حض على مكارم الأخلاق، فإن قصص الأنبياء لا تُحكى للتسلية والسمر، بل لتكون عبرة لمن يعتبر، وهي تبرز صور الأنبياء في خير حالاتهم لتكون قدوة للمقتدين.

ولهذا وجب أن تكون هذه القصص:

١- خلوًّا من حقائق يدحضها العلم.

٢- براء من حوادث ينكرها التاريخ.

٣- تصونها عما تنبو عنه الفضيلة، وما يجافي أدب السلوك.

٤- ترفعها عما فيه شنعة وفضوح سمعة.

ولا مجال في قصص الأنبياء لسياقة الخرافات والترهات ولا لتفصيل الأوضاع الشاذة وتصوير الأحوال الموصومة بالجنوح

والانحراف. ولكن القصة التي بين أيدينا لم تقنع بأن تكون قصة كاملة ذات رأس ورجلين، وأصرت على أن يكون لها ذيل ولو أبطل هذا الذيل قيمتها وأفقدها مغزاها وجعلها إلى البهيمية أدنى فأصبحت غير قمينة بأن يطالعها الأحداث وبخاصة لأن المؤرخ المقدس أسهب في تفصيل حوادثها الماجنة دون أن يعلق عليها بكلمة استنكار.

رأينا أصهار لوط وقد لفظوا أنفاسهم في حمام كبريتي ساخن ولحقت به امرأته فماتت وملحت، وخلص هو وابنتاه إلى صوغر. ولأمر ما لم تطب لهم الإقامة فيها بين أظهر الناس فاعتزلوهم وصعدوا في الجبل فاتخذوا لهم مقامًا في كهف قصي. ولوط هو الذي قال منذ أيام خلت.

«أنا لا أقدر أن أهرب إلى الجبل لعل الشر يدركني فأموت».

تكوين ١٩: ١٩

ومما لا ريب فيه أنه كانت على مقربة منهم بلاد مأهولة، ولكن الفتاتين اللعوبين آثرتا القعود عن المسير إليها شقة لا تزيد على بضعة كيلو مترات وأبتا أن تتريثا في إجراء نكاحهما حتى تهدأ الطبيعة الغضبى وتستقر الأمور في نصابها، ووجدتا في الوحدة العارضة وخلو الجبل من الرجال وفي دعوى الإذعان لسنة الله في الذين خلوا من قبل والحفاظ على تقاليد أهل الأرض في حفظ النوع، تعلة كافية للإقدام على ما بيتا النية عليه. وما أسهل العثور على التعلات لمن يعتزم ارتكاب الإثم. وما لهما لا تلتمسان عند أبيهما إطفاء غليلهما الجنسي وقد سمعتاه يساوم شباب البلدة على جسديهما الغضين ويبيحهم مفاتنهما الحسنى:

«وقالت البكر للصغيرة أبونا قد شاخ وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض. هلم نسقي أبانا خمرًا ونضطجع معه فنحيي من أبينا نسلًا. فسقتا أباهما خمرًا في تلك الليلة ودخلت البكر واضطجعت مع أبيهما. ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها. وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة إني قد اضطجعت البارحة مع أبي. نسقيه خمرًا الليلة فادخلي اضطجعي معه. فنحيي من أبينا نسلًا. فسقتا أباهما خمرًا في تلك الليلة أيضًا. وقامت الصغيرة واضطجعت معه. فحبلت ابنتا لوط من أبيهما»[1].

تكوين ١٩: ٣١-٣٦

وكانت تلك معجزة لوط الكبرى. لقد جعل كلًّا من ابنتيه أمًّا لأخيها، على حين أصبح هو جد ابنيه ووالد حفيديه. أما سائر أولاده فقد أُهلكوا بالنار والكبريت، فيا لها من أسرة تاعسة.

لئن كانت المدينة التي اتخذها لوط مقامًا لسكناه جديرة حقًّا بأن تصبح مضرب المثل في الفجور والعهر، إن ذلك لم يكن لما أتاه أهلها الأصلاء، ولكن لما أتاه لوط نفسه من ملامسته لابنتيه.

وبيت القصيد فيما تبسطه القصة المقدسة أن هذا الزنا أثمر ولدين نغلين أسس كل منهما شعبًا قويًّا.

---

(١) إشارة إلى الآية ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ﴾ [الأحزاب:٣٨] التي تقول في رغبة النبي في تزوج زينب بنت جحش ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ [الأحزاب: ٣٨].

«فولدت البكر ابنًا ودعت اسمه موآب. وهو أبو الموآبيين إلى اليوم. والصغيرة أيضًا ولدت ابنًا ودعت اسمه بن عمي وهو أبو بني عمون إلى اليوم».

تكوين ١٩: ٣٧-٣٨

وجلية الأمر أن هذين الشعبين القويين، بني موآب وبني عمون لبثا إلى زمن إدراج هذه القصة في التوراة يناصبان اليهود العداء ويكيلان لهم الضربة تلو الضربة، ولم يجد اليهود مثلبة ينتقصون بها من مروءتهم أعظم من رميهما بأنهما ولدا لزنية[1].

* * *

(١) وهذا يذكرنا بمشهد في مسرحية ماكبث لشكسبير ترى فيه بوابًا يقهقه ساخرًا من قصة كان يستمع إليها وهي قصة رجل هرم افترع وهو مخمور عذراوين فأولد كلًّا منهما طفلًا، وجعلت المرأتان تفاخر كل منهما الأخرى بابنها النغل دون أن ينتابهما شعور بالخجل مما وقع لهما.

يوسف

يوسف

تمتاز قصة يوسف بن يعقوب من سائر القصص التي تنتظمها التوراة بأنها قصة المنامات والرؤى، فهي قصة في ٦ أحلام:

حلمان ليوسف.

«لساقي فرعون وخبازه».

«لفرعون نفسه».

وتزعم القصة أن هذه الأحلام قد تحققت جميعًا.

وإنا ليعصمنا العلم في هذا العصر من أن نعير الأحلام ما كان لها من مفهوم قديم، فلسنا نرى فيها وسيلة للكشف عن الغيب، بل تعبيرًا رمزيًّا عن رغبات مكبوتة. وقد جرى العامة من المصريين والمحدثين على استعمال كلمة «الحلم» نقيضًا لكلمة «العلم» فيقولون «حلم هذا أم علم». أما القدامى فكان لهم في ذلك رأي آخر، فالأحلام عندهم رسائل إلهية منزلة من السماء. ولا غرو أن تُعزى ظاهرة الحلم الغامضة إلى الآلهة، فقد كانت الرهبة المنبعثة من مواجهة الأمور الغامضة من أكبر مولدات الأوهام والتخيلات الدينية عند القدماء.

وقد دبجت براعة الكاتب الروماني الفذ شيشرون[1] نبذة بسط فيها رأيه ورأي معاصريه في الأحلام، قال:

«إن ما يقع للرائي أو العرَّاف خلال يقظته يقع مثله لعامة الناس في أثناء نومهم، فعندما يبلغ الإعياء بالجسم أن يكون أدنى إلى الموت، تنتبه الروح وتتحرر من سلطان الحواس ومن العناية بشتى الأمور. وبما أن الروح كائنة منذ الأزل، وبما أنها على اتصال وثيق بحشد لا يحصى من الأرواح فإنها، ما لم يكدر صفوها الإفراط في الطعام والشراب، تظل قادرة على الاستمرار في يقظتها حين تأخذ الجسم سنة أو يملك العين نوم، فتطلع على طبائع الأشياء، وبذلك يُؤتى الحالم مقدرة على قراءة الغيب.

وليس تفسير الأحلام موهبة، بل هو أمر اكتسابي. وبما أن الحلم والتفوه بالوحي **oracle** والتنبؤ بالغيب **predictions** ينطوي على الكثير من الأمور الغامضة، فإنَّا نجد في ذلك مفتاحًا لتفسير الأحلام» اهـ.

هذه آراء فيلسوف لا محل في رأسه للعقيدة غير المفكرة. بيد أن جمهرة الناس لم يكونوا يفكرون في الأزمان الغابرة على هذا النحو من ترتيب النتائج على المقدمات، بل كانوا مؤمنين لا يخامرهم ريب في أنَّ مشيئة الله قد اقتضته أن يكشف لعبيده الحجب عن المستقبل، وفي أنه جعل الأحلام من وسائله إلى ذلك، شأنها في شأن تنبؤ **vision** الأنبياء وتفوه الكهنة بالوحي.

---

(١) شيشرون (١٠٦ -٤٣ ق. م) خطيب وكاتب ومحام وسياسي روماني لج في معارضة أنطونيو وألقى في مناوأته خطبًا كان جزاؤه عليها إنفاذ الحكم بالقتل فيه في ديسمبر سنة ٤٣ ق. م.

ومما يدعو إلى العجب، في هذا العصر الذي ينكسر على الأحلام ما كان يعزوه إليها القدماء من جليل الخطر، أن نجد بين الناس من يصدق قصة كهذه قائمة من ألفها إلى يائها على الأحلام وما لها من تأويل.

والمفروض أن هذه القصة قد جرت وقائعها في القرن الثامن عشر ق. م. أي قبل أن يُوحى بها إلى موسى بـ ٣ أو ٤ قرون، ولكن في القصة ما ينم على أنها لم تُوضع إلا بعد أن قضى موسى بزمن غير قصير، ومن ذلك أن يوسف يحدث ساقي فرعون حديث موطنه كنعان فيسميه أرض العبرانيين.

«لأني قد سرقت من أرض العبرانيين».

تكوين ٤٠: ١٥

وهي تسمية كانت إذ ذاك سابقة لأوانها؛ إذ إن العبرانيين -فيما تقول التوراة- لبثوا تائهين في صحبة موسى ٤٠ عامًا في صحراء سيناء ولم يبدأوا في غزو كنعان إلا في عهد يوشع بن نون (الخضر) وهو الذي كان خادمًا لموسى، فلما مات موسى خلفه هو على زعامة اليهود.

«وكان بعد موت موسى عبد الرب أن الرب كلم يشوع بن نون خادم موسى قائلًا. موسى عبدي قد مات. فالآن قم اعبر هذا الأردن أنت وكل هذا الشعب إلى الأرض التي أنا معطيها لهم أي لبني إسرائيل».

يشوع ١: ١

ودامت الحرب بينهم وبين الكنعانيين أصحاب البلاد زهاء ٤ قرون، ودانت البلاد للعبرانيين في عهد الملك داود.

وقد حرص واضعو قصة يوسف على أن يكفلوا لها الذيوع وبُعد الصيت، ولذا جعلوها تنطوي على غرام عارم وعواطف جياشة وتتخللها دسائس ومغامرات وتتراءى على مسرحها غادة فتانة هي امرأة فوطيفار.

كان يوسف أحب بني إسرائيل إلى أبيهم، ولم يكن إيثار والده له على سائر إخوته لمأثرة أو مزية فيه، بل لسبب صادر عن الأنانية هو أنه ابن شيخوخته وأنه ابنه من زوجته الأثيرة راحيل[1]، تلك التي لم يقيض لها أن تفعم بالعيش معه طويلًا؛ إذ فاضت نفسها عقب ولادتها بنيامين شقيق يوسف على قارعة الطريق.

كان يوسف يحظى من والده بالإعزاز والإكرام، ويستأثر منه بالعطايا والمنح، وقد حباه والده بقميص متعدد الألوان لا ندري كيف وقع له في تلك الأرض القاحلة الوحيدة اللون، وكان هذا الإيثار خطأً تربويًّا أعقب النتيجتين اللتين بُنيت عليهما القصة.

١- فقد بعث في يوسف الغرور والاستعلاء حتى جعل يحلم في يقظته وفي منامه أحلامًا يرى فيها إخوته يعفرون جباههم بالثرى عند قدميه، ولم يتحرج عن مصارحتهم بذلك.

«وحلم يوسف حلمًا وأخبر إخوته فازدادوا أيضًا بغضًا له. فقال لهم اسمعوا هذا الحلم الذي حلمت. فها نحن حازمون حزمًا في الحقل وإذا حزمتي قامت وانتصبت فاحتاطت

(١) وهي صغرى الشقيقتين ابنتي خال يعقوب المدعو لابان الأرامي (أي الشامي) وقد جمع يعقوب بينهما بالزواج في أسبوع واحد كما هو مذكور في قصة (سفر التكوين الإصحاح التاسع والعشرون) وقد لبثت راحيل في بادئ الأمر عقيمًا سنين عددًا ثم من الله عليها فحملت بيوسف بعد لأي.

حزمكم وسجدت لحزمتي[1] فقال له إخوته ألعلك تملك علينا ملكًا أم تتسلط علينا تسلطًا».

تكوين ٣٧: ٥ -٨

«فقال إني قد حلمت أيضًا وإذا الشمس والقمر وأحد عشر كوكبًا[2] ساجدة لي. وقصه على أبيه وعلى إخوته فانتهره أبوه وقال له ما هذا الحلم الذي حلمت. هل نأتي أنا وأمك وإخوتك لنسجد لك إلى الأرض».

تكوين ٣٧: ٩ -١٠

وعلم هذا الإيثار يوسف الكيد لإخوته وتجسس أخبارهم وإفشاء هناتهم ومخازيهم إلى أبيه.

«وأتى يوسف بنميمتهم الرديئة إلى أبيه».

تكوين ٣٧: ٢

٢- وأوغر صدور إخوته عليه، وأذكى في نفوسهم مشاعر الحقد والحسد اللذين فطر عليهما يهود العهد القديم وأثار فيهم غريزة النفار والمشاكسة اللتين هم نزاعون إليهما. وقد تفاقم النزاع المشتجر بينه

---

(١) يفهم من ذلك أن هؤلاء الإخوة كانوا يحترفون الزراعة، ولكنا سنرى قريبًا أنهم كانوا من رعيان الضأن.

(٢) الكلمة التي تقابل كلمة «كوكب» في الترجمة الإنجليزية هي **star** أي نجم. والكواكب **planets** هي الأجرام السماوية التي تدور في فلك النجم ويُسمى النجم بالنسبة إليها شمسًا. قال النابغة الذبياني:

كأنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

غير أن العرب لم يكونوا يميزون بين الكلمتين بل يستعملونهما بمعنى واحد ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴾ [يوسف: ٤].

وبينهم فلم يترددوا في مكاشفته بنقمتهم عليه.

«ولم يستطيعوا أن يكلموه بسلام».

تكوين ٣٧: ٤

وشخص الغلام إليهم مرة في كل مكان قصي كانوا يرعون فيه غنم أبيهم فطرأت على أذهانهم فكرة إزاحته من طريقهم بقتله حتى لا يستمر حائلًا دون أن يحظوا بعطف أبيهم.

«فلما أبصروه من بعيد قبلما اقترب إليهم احتالوا له ليميتوه. فقال بعضهم لبعض هو ذا هذا صاحب الأحلام قادم. فالآن هلم نقتله ونطرحه في إحدى الآبار[١] ونقول وحش رديء أكله فنرى ماذا تكون أحلامه. فسمع رأوبين وأنقذه من أيديهم. وقال لا نقتله. وقال لهم رأوبين لا تسفكوا دمًا[٢] اطرحوه في هذه البئر التي في البرية ولا تمدوا إليه يدًا. لكي ينقذه من أيديهم ليرده إلى أبيه». تكوين ٣٧: ١٨ -٢٢

وألقوه في غيابة جب قيل إن ماؤه كان غورًا، وقيل بل كان به ماء، ولكن يوسف التمس النجاة من منيته بالجلوس على صخرة فيه. ولم

---

(١) يبدو من ذلك أنه كانت في تلك المنطقة المقفرة آبار جمة.

(٢) في هذا الحديث دلالة على إيمان أولئك العبريين بالمذهب الحيوي وخوفهم من انتهاك تابو الدم، فالدم عندهم ينطوي على مادة الحياة (تثنية ١٢: ٢٣) و (مزامير ٥١: ١٤) فإذا ما سفك الدم خرجت معه روح القتيل وأنشأت تقتص ممن سفك دمه.

وفي نهاية القصة دلالة أخرى على تغلغل هذه العقيدة في نفوسهم، فعندما عنف يوسف في مصر بإخوته -وهم لا يعرفونه- تذكروا ما فعلوه بأخيهم الذي فقدوه قبل ١٣ سنة خلت.

«فأجابهم رأوبين قائلًا ألم أكلمكم لا تأثموا بالولد وأنتم لم تسمعوا فهذا دمه يطلب».

تكوين ٤٢: ٢٢

ينس هؤلاء الإخوة أن ينضوا عن يوسف قميصه الذي كان يزهو به عليهم؛ ليضرجوه بدم تيس من تيوس معزاهم، فيزعموا لأبيهم أن هذا القميص هو كل ما بقي من ابنه الأثير لديه بعد أن افترسه سبع من وحش الفلا رديء الخلق شكس الطباع.

«فأخذوا قميص يوسف وذبحوا تيسًا من المعزى وغمسوا القميص في الدم. وأرسلوا القميص الملون وأحضروه إلى أبيهم وقالوا وجدنا هذا. حقق أقميص ابنك هو أم لا».

تكوين ٣٧: ٣١-٣٢

وجازت هذه الحيلة الرخيصة على النبي الموحى إليه، ولم يفطن الوالد الثاكل إلى خلو القميص من الآثار التي تحدثها أنياب الوحوش وأظفارها، ولم يميز بين دم التيوس ودم بني إسرائيل، ولم يفكر في إحصاء تيوسه ليتبين نقصان واحد منها مع فقدان ابنه يوسف، كما أن إلهه الذي طالما أخبره مقدمًا بما سيكون، لم يتراء له في يقظة أو منام ليقص عليه ما كان.

وفيما كان الأحد عشر كوكبًا قعودًا يصيبون طعامهم عن كثب من مسرح الجريمة، إذ مرت بهم قافلة بتجارة، وسرعان ما أجمع بنو إسرائيل رأيهم -بما عرف عن جنسهم من المهارة في هذه الشؤون- على أن يخرجوا من المأساة بصفقة رابحة، وذلك بأن يبيعوا أخاهم البالغ ١٧ عامًا ولو بقدر زهيد من المال.

«وإذا قافلة إسماعيليين مقبلة من جلعاد وجمالهم حاملة كثيراء وبلسانًا ولادنا ذاهبين لينزلوا بها إلى مصر. فقال

يهوذا[1] لإخوته ما الفائدة أن نقتل أخانا ونخفي دمه. تعالوا فنبيعه للإسماعيليين ولا تكن أيدينا عليه لأنه أخونا ولحمنا. فسمع له إخوته. واجتاز رجال مديانيون تجار فسحبوا يوسف وأصعدوه من البئر وباعوا يوسف للإسماعيليين بعشرين من الفضة[2]. فأتوا بيوسف إلى مصر. ورجع رأوبين إلى البئر وإذا يوسف ليس في البئر فمزق ثيابه ثم رجع إلى إخوته وقال الولد ليس موجودًا. وأنا إلى أين أذهب».

تكوين ٣٧: ٢٥ - ٣٠

يا لها من أحجية! بينا تقول التوراة إن الإخوة الأحد عشر قد صح منهم العزم على أن يحقنوا دم أخيهم إذا هي تقتضب حديثهم فجأة، وإذا رجال مدينيون يحضرون من حيث لا ندري فينتشلون الغلام من البئر ويبيعونه هم للإسماعيليين، فما دخل المدينيون في الأمر إذن؟ وما جدوى الحوار المستفيض بين الإخوة وهو لا ينتهي إلى شيء؟

وبيع يوسف في مصر لفوطيفار، فمن هم الذين باعوه؟ أهم المديانيون؟

---

(١) نجد في سفر التكوين كيف أن يهوذا بن يعقوب هذا خدعته عن نفسه أرملة ابنه المدعوة ثامارا، فنزا عليها وحملت منه بعد أن عز عليها أن تحمل من ولده إذ كان هذا يكره أن يرزق منها ولدًا ينسب إلى أخيه المتوفى وقد كان زوجًا لها قبله.

«فكان إذ دخل على امرأة أخيه أنه أفسد على الأرض لكيلا يعطي نسلًا لأخيه».

تكوين ٣٨: ٩

(٢) هذا هو الثمن الذي حددته له التوراة التي بين أيدينا، على حين أن النسخة اللاتينية المعروفة باسم **Yulgate** تقول بأن الثمن كان ثلاثين وزنة من الفضة.

وتقول الترجمة السبعينية إنه كان عشرين قطعة من الذهب.

نعم:

«وأما المديانيون فباعوه في مصر لفوطيفار خصي فرعون رئيس الشرط».

تكوين ٣٨: ٣٦

أهم الإسماعيليون؟

نعم أيضًا:

«وأما يوسف فأنزل إلى مصر واشتراه فوطيفار خصي فرعون رئيس الشرط رجل مصري من يد الإسماعيليين الذين أنزلوه إلى هناك».

تكوين ٣٩: ١

لقد شاع الاضطراب في هذه القصة التي يتوقف على تصديقها خلاص الملايين من الناس والتي أهرقت في الخلاف على تفسيرها بحار من الدماء، ومردّ ذلك إلى أنها -كالكثير من قصص الكتاب المقدس- مؤلفة من قصتين متباينتين مُزجت كل منهما بالأخرى دون لباقة ولا انسجام، فكانت عقبى ذلك شيوع التكرار فيما يتصل ببعض أجزاء القصة، وشيوع التناقض في أجزاء منها.

١- فقد ذكرت إحدى القصتين أن إخوة يوسف هم الذين باعوه للإسماعيليين فباعه الإسماعيليون في مصر لفوطيفار.

وذهبت القصة الأخرى إلى أن المدينيين هم الذين انتشلوه من الجب وباعوه في مصر، وهذا يعلل قوله إنه سرق من أرض العبرانيين.

٢- وألقت به إحدى القصتين في السجن من جراء شكوى امرأة فوطيفار إياه.

«فكان لما سمع سيده كلام امرأته الذي كلمته به قائلة بحسب هذا الكلام صنع بي عبدك أن غضبه حمى، فأخذ يوسف سيده ووضعه في بيت السجن المكان الذي كان أسرى الملك محبوسين فيه. وكان هناك في بيت السجن».

تكوين ٣٩: ١٩ -٢٠

وذهبت به القصة الأخرى إلى السجن سجانًا لا سجينًا، إذ وقع عليه اختيار سيده رئيس الشرط ليكون ضابطًا في السجن يصرف أمور السجناء فيه.

«فدفع رئيس بيت السجن إلى يد يوسف جميع الأسرى الذين في بيت السجن. وكل ما كانوا يعملون هناك كان هو العامل».

تكوين ٣٩: ٢٢

وقد أنتج هذا التلفيق بين المتنين المتباينين قصة مفككة غير متزنة تورث القارئ بلبلة وحيرة.

وقد استرعى ذلك انتباه طبيب فرنسي في القرن الماضي، فلفت الأنظار إلى الأمر، وأقبل الدارسون على متابعة البحث والتنقيب في ضوء هذه الملاحظة فظفروا بنتائج جليلة القيمة.

ومهما يكن من أمر فقد بيع يوسف لفوطيفار رئيس الشرط وهو

رجل مصري ظل محتفظًا برجولته كاملة حتى وقع في أيدى المترجمين الذين نقلوا هذا السفر إلى العربية فـ (طوّشوه) وجعلوا منه خصيًّا. وقد وصفته الترجمة الإنجليزية بأنه ضابط ومن كبار رجال الحرس الفرعوني، ولم يرد فيها ما يومئ إلى أنه خصي، وكان جديرًا بالسادة الذين نقلوا هذا السفر إلى العربية، قبل أن يشوهوه بفقدانهم الأمانة في الترجمة أن يفطنوا إلى:

١- أن الخصيان كانوا يتخذون عادة من أهل السودان والحبشة لا من المصريين الأقحاح.

٢- أنه ليس من المقبول أن يكون رئيس الشرط من الخصيان.

٣- أنه ليس من طبائع الأمور أن يتزوج الخصي.

٤- فإذا تزوج كان على زوجته أن تحجم عن ملاحقة الشبان ودعوتهم إلى مضاجعتها حتى لا تفتضح إذا علقت من أحدهم بطفل لا يتسنى أن تنسبه إلى زوجها الخصي.

هذا، وقد ترك السيد فوطيفار ليوسف تصريف شؤون داره، وكانت عقبى ذلك:

«أن الرب بارك بيت المصري بسبب يوسف».

تكوين ٣٩: ٥

فلنفحص إذن عن آثار تلك البركة التي حلت ببيت السيد المصري من جراء العبد العبراني. وهنا تبرز فجأة صفة من صفات يوسف لم يرد لها ذكر من قبل، هي أنه كان جميلًا مفرطًا في الجمال، بيد أن هذا الجمال

لم يكن ذا بال في مقت إخوته إياه ولا في تقدير المال الذي أدى ثمنًا له، كما أنه لم يسترع انتباه الخصي الذي اشتراه وتركه في خلوة بامرأته المكبوتة. فلندع فتى أو فتاة من أبنائنا يتل علينا ما وقع بين العبد وسيدته.

«وحدث بعد هذه الأمور أن امرأة سيده رفعت عينيها إلى يوسف وقالت اضطجع معي فأبى... وكان إذ كلمت يوسف يومًا فيومًا أنه لم يسمع لها أن يضطجع بجانبها ليكون معها».

تكوين ٣٩: ٧ -١٠

يا للخلق الحميد الذي استعصى على الإغراء المتصل، ولم تؤثر فيه العينان المتقدتان شبقًا، ولن ينفذ إليه الصوت المرتعش جوى والتياعًا، ولم يلين فؤاده النداء الممتلئ لهفة وتضرعًا «اضطجع معي».

«ثم حدث نحو هذا الوقت أنه دخل البيت ليعمل عمله ولم يكن إنسان من أهل البيت هناك في البيت. فأمسكته بثوبه قائلة اضطجع معي. فترك ثوبه في يدها وهرب وخرج إلى خارج. وكان لما رأت أنه ترك ثوبه في يدها وهرب إلى خارج أنها نادت أهل بيتها وكلمتهم قائلة انظروا. قد جاء إلينا برجل عبراني ليداعبنا. دخل ليضطجع معي فصرخت بصوت عظيم. وكان لما سمع أني رفعت صوتي وصرخت أنه ترك ثوبه بجانبي وهرب وخرج إلى خارج».

تكوين ٣٩: ١١ -١٥

لقد لبثت تراوده عن نفسه والبيت خلو من أهله، فلما امتنع عليها أطلقت صيحة، فإذا أهل البيت جميعًا حاضرون.

وتنتهي القصة الأبدية المثلثة الأشخاص، قصة الزوج والزوجة والعشيق، بأن يصدق فوطيفار زوجته ويؤمن بخيانة العبد الذي كان قد.

«رأى سيده أن الرب معه».

تكوين ٢٩: ٣

وأبدت امرأة فوطيفار رغبتها في سجن يوسف لتظهر مظهر من صدفت عن رؤيته، ودخل قمر كنعان سجنه كما يدخل قمر السماء -في اعتقاد أولئك القوم- عندما يصير محاقًا. وقد كان فوطيفار عاجزًا عن إشباع رغبة حليلته في الناحية الجنسية، ولكنه استطاع أن يرضي رغبتها في حبس عشيقها القاسي الفؤاد الذي تعفف عن تذوق ما أدنت منه جناه وأصم أذنيه عن دعوتها إياه إلى قطافه.

وأمضى يوسف في السجن ١٢ أو ١٣ سنة.

«ولكن الرب كان مع يوسف». تكوين ٣٩: ٢١

فأرسل إليه بساقي فرعون وخبازه ليخبرا مقدرته على تأويل الأحلام فيخبر أحدهما فرعون بذلك بعد سنتين.

وحلم كل من الخادمين الخصيين[١] حلمًا.

«وحلما كلاهما حلمًا في ليلة واحدة كل واحد حلمه كل واحد بحسب تعبيره حلمه. ساقي ملك مصر وخبازه المحبوسان في بيت السجن. فدخل يوسف إليهما في الصباح ونظرهما وإذا هما مغتمَّان. فسأل خصي فرعون اللذين معه في حبس

(١) ليس في الترجمة الإنجليزية ما يشير إلى أنهما خصيان.

بيت سيده قائلًا لماذا وجهاكما مكمدان اليوم فقالا له حلمنا حلمًا وليس من يعبره فقال لهما يوسف أليست لله التعابير قصَّا عليَّ فقص رئيس السقاة حلمه على يوسف وقال له كنت في حلمي وإذا كرمة أمامي وفي الكرمة ثلاثة قضبان. وهي إذ فرعون وأعطيت الكأس في يد فرعون. فقال له يوسف هذا تعبيره. الثلاثة القضبان هي ثلاثة أيام. في ثلاثة أيام أيضًا يرفع فرعون رأسك ويردك إلى مقامك. فتعطي كأس فرعون في يده كالعادة الأولى حين كنت ساقيه. وإنما إذا ذكرتني عندك حينما يصير لك خير تصنع إلي إحسانًا وتذكرني لفرعون وتخرجني من هذا البيت. لأني قد سُرقت من أرض العبرانيين. وهنا أيضًا لم أفعل شيئًا حتى وضعوني في السجن».

تكوين ٤٠: ٥ -١٥

وروى رئيس الخبازين أيضًا حلمه ليوسف، فعبره له بأن فرعون سيأمر بقتله وينفذ فيه الحكم قبل انصرام ثلاثة أيام. وتحقق الحلمان في اليوم الثالث حقًّا، ثم انطوى الموضوع في زوايا النسيان.

«وحدث من بعد سنتين من الزمان أن فرعون رأى حلمًا. وإذا هو واقف عند النهر. وهو ذا سبع بقرات طالعة من النهر حسنة المنظر وسمينة اللحم». تكوين ٤١: ١ -٨

هنا فقط برزت صورة يوسف في ذهن رئيس السقاة من زوايا النسيان فأفضى إلى فرعون بما أوتي يوسف من المقدرة في هذا الباب واستدعى فرعون يوسف وقص عليه رؤياه فأنبأه يوسف بتأويلها.

«هو ذا سبع سنين قادمة شبعًا عظيمًا في كل أرض مصر. ثم تقوم بعدها سبع سنين جوعًا».

تكوين ٤١: ٢٩ – ٣٠

ونصح يوسف إلى فرعون بأن يضاعف خراج الأرض من القمح حتى يتاح له أن يدخر في سني الشبع ما يهون به من شرّة المجاعة في سني الجدب، فأعجب فرعون بيوسف ونقله من السجن إلى رياسة الوزارة وجعله الرجل الثاني في الدولة.

«وخلع فرعون خاتمه من يده وجعله في يد يوسف وألبسه ثياب بوص ووضع طوق ذهب في عنقه. وأركبه في مركبته الثانية ونادوا أمامه اركعوا».

تكوين ٤٢: ٤٣

ولم يجد نبي الله غضاضة في أن يركع الخلق بين يديه.

كان هذا العبد العبري فيما سبق سيده رئيس الشرط قائلًا.

«هو ذا سيدي لا يعرف معي ما في البيت وكل ما له قد دفعه إلى يدي».

تكوين ٣٩: ٨

فأصبح يتفوه بمثل ذلك في مكانه من فرعون، زاعمًا أن الله:

«قد جعلني أبًا لفرعون وسيدًا لكل بيته ومتسلطًا على كل أرض مصر».

تكوين ٤٥: ٨

ودأب الصدر الأعظم يستولي على غلال الزرع:

«وخزن يوسف قمحًا كرمل البحر كثيرًا جدًّا حتى ترك العدد إذ لم يكن له عدد».

تكوين ٤١: ٤٩

بيد أنه كان أمكر من أن يطلعهم على الباعث له على هذا السلوك. لقد اشترى منهم الحنطة بالثمن البخس ليحبسها ردحًا من الدهر ثم يبيعهم إياها بأفدح الأثمان فكان بذلك **regator** على حد الاصطلاح الإنجليزي أو **cornerer** على حد الاصطلاح الأمريكي أي محتكرًا يجمع الحبوب من منتجيها ويحبسها عنهم ردحًا من الوقت ثم يبيعهم إياها عند احتياجهم إليها فيما بعد بأثمان أزمنة المجاعة، وهو عمل يعد في الوقت الراهن خروجًا على القوانين في البلاد التي يعد فيها يوسف رجلًا بارًّا.

«ثم كملت سبع سني الشبع الذي كان في أرض مصر.
وابتدأت سبع سني الجوع تأتي كما قاله يوسف».

تكوين ٤١: ٥٣ -٥٤

واستشرت المجاعة، فلم يبق أمام أهل مصر إلا أن يشتروا القمح من يوسف بالثمن الذي يفرضه عليهم. وسرعان ما استصفى يوسف كل ما كان القوم يمتلكون من أراض زراعية، إلا أراضي الكهنة فقد كف عنها يده.

«إلا أن أراضي الكهنة لم يشترها».

تكوين ٤٧: ٢٢

لقد كان يعرف أن أولئك الكهنة هم سدنة بيوت الأصنام فهم

مشركون بالله، ويعرف إلى جانب ذلك أنهم يملكون جانبًا ضخمًا من الرقعة الزراعية في البلاد، ولكنه كان يعرف قبل ذلك أنهم حكام البلاد الفعليون.

وازدادت الحال تدهورًا، فاشترى يوسف من الناس أنفسهم ففقدوا حريتهم وأصبحوا أقنانًا يسامون الخسف.

«فقال يوسف للشعب إني قد اشتريتكم اليوم وأرضكم لفرعون».

تكوين ٧: ٢٣

اهتبل الرقيق العبري جوعة الناس فجعل منهم عبدانًا على حين أصبح هو طليقًا من العبودية حاظيًا من فرعون بالرضى السامي عليه وعلى أسرته النبوية التي تتضور جوعًا في كنعان، على إسرائيل وبني إسرائيل وقد اقتضت حبكة القصة:

١- أن تمتد المجاعة حتى تظل كنعان حيث يقيم إخوة يوسف وأن ينشب السغب فيها أظفاره سنة إثر سنة، حتى لا يجد إخوة يوسف مفيضًا إلا أن ينتجعوا مصر مرة وثانية وثالثة.

٢- أن يرسل يعقوب إلى مصر بعشرة من أولاده الأحد عشر كوكبًا دفعة واحدة، وكان في استطاعته أن يكتفي بإرسال بعضهم على رأس ثلة من الأجراء.

٣- ألا يجدوا سبيلًا إلى شراء بضعة الأرادب التي يفتقرون إليها إلا بأخذها من رئيس الوزراء بشخصه، وكأن مصر قد خلت من التجار ومن

موظفي الدولة، فلا مندوحة للمحتكر الأكبر صديق الله (وقد طالما كان كبار المحتكرين من أصدقاء الله) عن أن ينزل بنفسه إلى السوق ويتولى أعمال البيع جميعًا فيسجد له أهل الشرق الأدنى جميعًا.

«فأتى بنو إسرائيل ليشتروا بين الذين أتوا لأن الجوع كان في أرض كنعان. وكان يوسف هو المسلط على الأرض وهو البائع لكل شعب الأرض. فأتى إخوة يوسف وسجدوا له بوجوههم إلى الأرض... وعرف يوسف إخوته. وأما هم فلم يعرفوه».

تكوين ٤٢: ٥ -٨

وشاهده إخوته بعد أن غاب عنهم ما يربو على ٢٠ عامًا[١] فلم يعرفوه مع ما يمتاز به من جمال فضاح وسحنة عبرية ومع ذيوع قصته واشتهار أنه أجنبي المنبت، وقد عرفهم هو وتذكرهم بعد نسيان وحمد الله على أنه أنساه إياهم فأسمى ابنه منسي.

«ودعا يوسف اسم البكر منسي قائلًا لأن الله أنساني كل تعبي وكل بيت أبي ودعا اسم الثاني إفرايم قائلًا لأن الله جعلني مثمرًا في أَرض مذلتي». تكوين ٤١: ٥١ -٥٢

وهو لا يقصد بأرض مذلته موطنه الأصلي حيث أنكره إخوته واتمروا به ليقتلوه إلخ إلخ، بل موطنه الثاني حيث تربع فوق كرسي الوزارة وأصبح ثاني اثنين في البلاد، تلك البلاد التي أذل شعبها جميعًا

(١) فقد كان في السابعة عشرة من سنه عندما بيع في كنعان، وكان يناهز الثلاثين عندما مثل بين يدي فرعون، ثم مرت السنوات السبع السمان الفاشية الغلة وردفتها السنوات العجاف.

وفرض عليهم العبودية، فكان في كرهه للمصريين وحقده عليهم قدوة لخلفه موسى حين غادر قصر فرعون ليقتل مصريًّا شجر بينه وبين أحد العبريين نزاع.

عرف يوسف إخوته ولكنه لم يكشف لهم عن جلية أمره، وكان مسلكه بإزائهم صبيانيًّا وفيه خديعة لا تليق بصادق كريم فاتهمهم بالتجسس وأودعهم السجن، ثم اقترح عليهم أن يطلق واحدًا منهم ليقفل إلى بلادهم فيأتي بالأخ الأصغر بنيامين الذي قالوا إنهم تركوه هناك، زاعمًا أنه يرى في حضور هذا الأخ ما يبرئهم من تهمة التجسس، ثم عاد إليهم في يوم تال وقد عدل مقترحه مجترئًا باستبقاء واحد منهم في السجن رهينة وإطلاق الباقين؛ ليؤوبوا إلى بلادهم ويحضروا الأخ المنشود.

«أنا خائف الله. إن كنتم أمناء فليحبس أخ واحد منكم في بيت حبسكم وانطلقوا أنتم وخذوا قمحًا لمجاعة بيوتكم. وأحضروا أخاكم الصغير إليّ. فيتحقق كلامكم ولا تموتوا»...

تكوين ٤٢: ١٨ -٢٠

ولم يدهش الإخوة لسماع رجل مصري يتحدث عن «الله» ولم يدر بأخلادهم أنهم بين يدي موطن عبراني. وأبدى الرجل ارتيابه في حديثهم، فذكرهم هذا المأزق بجنايتهم على أخيهم، تلك الجناية التي كانوا قد نسوها وخالوها سقطت بمضي المدة، فلم تمثل في أذهانهم إلا عندما ألم بهم الضيق، وجعلوا يستعيدون -في حضرة يوسف- تفصيلات مؤامراتهم القديمة.

«وهم لم يعلموا أن يوسف فاهم. لأن الترجمان كان بينهم».

تكوين ٤٢: ٢٣

أي لأنه كان قد جاذبهم قبل أطراف الحديث بوساطة أحد المترجمين، مما ألقى في روعهم أنه لا يعرف لغتهم.

وأطلق يوسف إخوته بعد أن.

«أخذ منهم شمعون وقيده أمام عيونهم».

تكوين ٤٢: ٢٤

وباعهم حمل حميرهم قمحًا، وأخذ منهم ثمن القمح سبائك من فضة، بيد أنه ما لبث أن أمر في السر بأن:

«ترد فضة كل واحد منهم إلى عدله[1]». تكوين ٤٢: ٢٥

وهو مسلك معيب؛ فإن هذه الفضة لم تكن ملكًا له، بل هي ملك الدولة المصرية.

وعاد بنو إسرائيل إلى أبيهم عابرين صحراء سيناء في أيام معدودات. وهي التي تاه فيها حفيدهم موسى ٤٠ عامًا، ووصلوا إلى أبيهم بعد أن أكلت الحمير في الطريق جانبًا من حمولتها. فلما وصلوا إلى أبيهم قصوا عليه قصتهم.

«فقال لهم يعقوب أعدمتموني الأولاد يوسف مفقود وشمعون مفقود وبنيامين تأخذونه. صار كل هذا علي. وكلم رأوبين أباه قائلًا اقتل ابني إن لم أجئ به إليك. سلمه بيدي

(١) العدل :نصف الحمل يكون على أحد جنبي البعير و –الجوالق.

وأنا أرده إليك. فقال لا ينزل ابني معكم. لأن أخاه قد مات وهو وحده باق. فإن أصابته أذية في الطريق التي تذهبون فيها تنزلون شيبتي بحزن إلى الهاوية».

تكوين ٤٢: ٢٦ -٣٨

ونفد القمح الذي جلبه بنو إسرائيل على الأيام، وبقي شمعون يرسف في قيوده داخل السجن، اليوسفي، ولم تنته المجاعة. وأرغمت المسغبة نبي الله على الإذعان لملك القمح، فأرسل إليه بنيه جميعًا وفيهم بنيامين المحبوب، وأرسل معهم في ذلك القحط طرفة من البلسان والعسل والكثيراء واللاذن والفستق واللوز، ومثلوا بين يدي أخيهم، وقد أسماه فرعون باسم «صفنات فعنيح»، وقدموا له ما يحملون من الطرف فضلًا عن سبائك الفضة التي هي ثمن القمح المشترى. وعندئذ أمر يوسف بإدخالهم في بيته.

«فخاف الرجال إذا أدخلوا إلى بيت يوسف. وقالوا لسبب الفضة التي رجعت أولًا في عدلنا نحن قد أدخلنا ليهجم علينا ويقع بنا ويأخذنا عبيدًا وحميرنا».

تكوين ٤٣: ١٨

ولكن رئيس الخدم طمأنهم، ثم أمر يوسف بإحضار الطعام وجعل يأكل هو وحده.

«لأن المصريين لا يقدرون أن يأكلوا طعامًا مع العبرانيين لأنه رجس عند المصريين».

تكوين ٤٣: ٣٢

وقد أورث إخوته بسوء لقائه إياهم مرة بعد أخرى ضيقًا وعنتًا إذ إنه:

١ - اتهمهم بالتجسس:

«فتنكر لهم وتكلم معهم بجفاء... وقال لهم جواسيس أنتم لتروا عورة الأرض جئتم».

تكوين ٤٢: ٧-٩

وأودعهم غياهب السجن بهذه التهمة المزرية التي يعاقب مقترفها بالقتل.

٢ - دس فضتهم التي اشتروا بها القمح في أعدالهم دون أن يعلمهم بذلك، فلما ألفوها في أعدالهم طارت قلوبهم شتاتًا وأحسوا أنهم قد أحدقت بهم تهمة جديدة ذات عقوبة شديدة.

«فطارت قلوبهم وارتعدوا بعضهم في بعض».

تكوين ٤٢: ٢٨

٣- أرغمهم على أن يحضروا معهم أخاهم الأصغر مخلفين أباهم الشيخ وحيدًا يقضي لياليه في قلق ولوعة.

٤ - وضع طاس الفضة في عدل شقيقه بنيامين ثم أرسل من ضبطه. وأخبر إخوته أن بنيامين سيسام العبودية طول حياته جزاء جريمته النكراء، وذعر الإخوة لهذه المحن الشعواء التي تصب عليهم من عدو خفي.

«فمزقوا ثيابهم وحمل كل واحد على حماره ورجعوا إلى

المدينة. فدخل يهوذا وإخوته إلى بيت يوسف وهو بعد هناك. ووقعوا أمامه على الأرض. فقال لهم يوسف ما هذا الذي فعلتم. ألم تعلموا أن رجلًا مثلي يتفاءل».

تكوين ٤٤: ١٣ -١٥

فعل يوسف كل ذلك في غضون بضعة أشهر، دون أن يطرف له هدب، أو يجف منه قلب، ولبث يسر عنهم كنه أمره وكل همه أن يعد لهم المفاجأة المثيرة حين ظهر على حقيقته واستغنى عن ترجمان يترجم بينه وبينهم.

وسألهم عن أبيه:

«أُحيّ هو بعد فقالوا عبدك أبونا سالم».

تكوين ٤٣: ٢٧ -٢٨

وأدرك من إجابتهم أن جده إسحق قد مات، وذلك مع تجنبه وتجنبهم ذكر كلمة الموت توقيًا لما يعتقدون أنها تحدثه من سحر عاطفي.

وأرسل يوسف يستدعي أباه وإخوته ومن إليهم ليشاطروه ما يرفل فيه من بلهنية ورخاء.

«أسرعوا واصعدوا إلى أبي وقولوا له هكذا يقول ابنك يوسف. قد جعلني الله سيدًا لكل مصر. انزل إليّ لا تقف فتسكن في أرض جاسان وتكون قريبًا مني أنت وبنوك وبنو بنيك وغنمك وبقرك وكل مالك. وأعولك هناك لأنه يكون

أيضًا خمس سنين جوعًا».

تكوين ٤٥: ٩-١١

وتناهى الخبر السعيد إلى فرعون فهزته الأريحية أن يشمل ببره أهل يوسف، وأمر بأن تكون رحلتهم من كنعان إلى مصر على نفقته الخاصة وأقطعهم أرض جاسان[١].

«فأسكن يوسف أباه وإخوته وأعطاهم ملكًا في أرض مصر في أفضل الأرض في أرض رعمسيس كما أمر فرعون. وعال يوسف أباه وإخوته وكل بيت أبيه بطعام على حسب الأولاد».

تكوين ٤٧: ١١-١٢

وهكذا فقد المصريون أراضيهم وأقطع إسرائيل وبنوه أراضيَ لم يؤدوا لها ثمنًا.

* * *

لقد أنعم الفراعنة بالثراء العريض على كل من إبراهيم وإسحق ويعقوب ويوسف وإخوته. وجعل بنو إسرائيل يرتعون ويتناسلون وسرعان ما ناهز عددهم ٣,٠٠٠,٠٠٠ ومات في خلال ذلك إسرائيل وقد صرم من العمر ١٤٧ عامًا.

«وبكى عليه المصريون سبعين يومًا».

تكوين ٥٠: ٣

(١) وهي تقع إلى الشمال من بلبيس كما هو واضح في أطلس محمد رفعت.

ولا نعرف وجهًا لبكائهم على هذا الشيخ الهرم وهو لا يمت إليهم بآصرة من أواصر الجنس والدين واللسان. ومات كذلك يوسف، وقد صرم من العمر ١١٠ سنين[١] قضى منها ٨٠ سنة على دست الوزارة.

وكذلك قضى فرعون الذي أغفلت القصة ذكر اسمه، والذي كان يجزل العطاء للإسرائيليين، ودار الزمن فاعتلى العرش فرعون آخر لا نعرف اسمه أيضًا، ولكنا نعرف أنه لم يكن يأنس بالإسرائيليين، ومن ثم وجب التنكيل به وبشعبه معه؛ لأن إله العهد القديم شديد الانتقام وتلك هي المهمة التي أسندها إلى موسى[٢] وأخيه هارون وأفردوا لها كتبة التوراة سفر الخروج.

❊ ❊ ❊

(١) فقد تناقصت الأعمار بعد الطوفان فأصبحت قلما تتجاوز المائة من السنين، وكانت قبل ذلك كثيرًا ما تقارب الألف.

(٢) راجع «موسى وفرعون بين الأسطورية والتاريخية» لنفس المؤلف، وقد صدر عن دار العالم الجديد ط ١٩٧٥.

داود

داود

يطالعنا سفر صموئيل[١] والإصحاحات التي ابتدأ بها سفر الملوك الأول بأنباء حقبة هامة من تاريخ اليهود، تتخللها مأساة عنيفة، الشخصية الرئيسة فيها مسيح الرب الملك داود. ذاك الذي نادى به اليهود مقدمًا أبًا لمسيحهم المنتظر وهو من ناطوا به أملهم في انتشالهم من وهدة الذل والهوان[٢].

والملك داود من أبعد شخوص الكتاب المقدس صيتًا وأعظمهم ظفرًا بتمجيد الناس له في البلدان التي تدين بالمسيحية. وقصته -كسائر قصص العهد القديم- تتحدث عن التقتيل والتدمير والتحريق في سهولة تجعل أذهان القارئين تتبلد فيما يتصل بقيمة الحياة البشرية، وهي زاخرة بأخبار أعمال ذميمة أتاها داود، فبسط عليه يهوه جناح حمايته ولم يكفه عن معاودتها.

---

(١) ظهر هذان السفران في الترجمتين اليونانية واللاتينية بحسبانهما سفري الملوك الأول والثاني. أما سفرا الملوك الحاليان فكان رقماهما الثالث والرابع، ولا يزال ذلك هو المأخوذ به في الترجمة التي تبنتها الكنيسة الرومانية الكاثوليكية وهي الترجمة المعروفة باسم **Vulgate**.

(٢) وهي أبوة لم ينكرها اليهود الجدد، بل رأوا فيها مجدًا يسبغ على الرب ابن الإله.
«كتاب ميلاد المسيح ابن داود ابن إبراهيم».
متى ١ : ١

يشترط الرقيب الحكومي للسماح بتمثيل أي مسرحية أو سينمائية أن تكون عاقبتها عظة خلقية، فأما القصص التي تنطوي عليها سيرة داود وزوجاته وبنيه:

١- داود -أبيجابل.

٢- داود -بتشبع.

٣- أمنون -ثامار.

فهي لا تقتصر على أنها ذات خواتيم منافية لمكارم الأخلاق، بل هي فوق ذلك تصدم العرف العام في آداب السلوك، ومع ذلك فإن القساوسة والوعاظ يجأرون بالدعاء إلى الله أن يمن على البشرية برجل آخر من طراز داود.

هذا، ويشرك داود في أداء أدوار المسرحية:

١- شاول: البطل المقهور.

٢- صموئيل: الكاهن الماكر الذي يذود عن حمى الرجعية ونفر من الممثلين الثانويين على رأسهم.

٣- يوناثان: الصديق المثالي.

٤- ميكال: الزوجة الوفية.

٥- أبيجابل: الزوجة التي خالفت أمر زوجها.

٦- نابال: الزوج المخدوع.

٧- بتشبع: الزوجة الأثيرة القوية النفوذ.

٨- أوريا: الجندي المستمسك بالتقاليد.

٩- يوآب: القائد المظفر الذي يستبيح دماء الناس.

١٠- أبشالوم: الأمير الجميل.

١١- شمعي: سليل بيت شاول الشامت بداود.

١٢- أدونيا: الوريث الشرعي للعرش.

١٣- سليمان: قاتل أخيه.

١٤- أبيشج: حاضنة الملك.

ولفيف جم من البطانة (الكومبارس) يشمل كهنة وجنودًا وفلاحين وسراري. يضاف إلى هؤلاء جميعًا الممثل القدير يهوه الذي طالما أودع قلوب النظارة السرور وأمدهم بأسباب التسلية، فبينا هو يقدم على المسرح في هيئة صنم وفي صورة ريح عاصف، إذا هو قد احتجب هنيهة ثم جيء به فوق منصة المسرح ممدَّدًا في تابوت.

وإن هذه المسرحية لتشوق النظارة بما تعرض من مشاهد مثيرة تلهب مشاعرهم، ففيها ساحرة تستحضر أرواح الموتى لتستنبئها ما كان وما سيكون، وفيها أسد ودب يرديهما غلام من الرعيان بيدين عزلاوين. وما ننسى لا ننسى مشهد المركبات الحربية الفخمة تجرها الجياد المطهمة. وقد استكمل واضعو المسرحية عناصر الإغراب فيها بإحضارهم «جليات» ونفرًا من العمالقة لأحدهم ست أصابع في كل من يديه وقدميه، مما يحدث في مخيلات سامعي قصتهم من الأطفال وأشباه الأطفال أثرًا كالذي يحدثه فيها قميص يوسف المتعدد الألوان.

* * *

يعزو الكهنة الإصحاحات الأربعة والعشرين التي يبدأ بها السفر الأول إلى صموئيل نفسه، أما بقية هذا السفر وكذلك السفر الثاني كله، فيزعمون أنهما من وضع ناثان وجاد أوحى إليهما بهما. وهم يستندون في هذا الزعم إلى الآية:

«وأمور الملك داود الأولى والأخيرة هي مكتوبة في أخبار صموئيل الرائي وأخبار ناثان النبي وأخبار جاد الرائي».

أخبار ٢٩: ٢٩

ومجمل القول أن الذين كتبوا السفرين هم نفر من الكهنة، حشوهما تمجيد للرب أي لأنفسهم وأودعوهما من الترهات وأوجبوا فيهما من الفرائض[١] ما يكفل لطائفتهم موفور الرزق وعظيم السلطان، ثم فطنوا هم ومن تلاهم على الأيام إلى مزاعم ومطاليب كانت غاربة عن ذكائهم فلم يتحرجوا عن إضافتها إلى المتن، وقد فعلوا ذلك كرة بعد كرة، فكان نصيب السفرين من التحريف كبيرًا أكبر الغنائم التي يشرهون إليها. وليس بين أسفار العهد القديم في الوقت الراهن ما يصل إلى مستوى هذين السفرين فيما يتصل بتباين المحتويات وتعدد المصادر؛ فهما ينطويان على عناصر: منها جانب قديم يظهرنا على صورة صادقة للمعتقدات الدينية القديمة، ويكشف لنا عن نماذج من الأحداث التي كانت تتجاوب بها تلك الأزمنة والأمكنة، ومنها جانب لا يفصح عن شيء غير ما لكتابها من آراء ومعتقدات. ويتضمن هذان السفران فيما

(١) الفريضة: ما فرض في السائمة من الصدقة، يقال «ما لكم لا تؤدون فرائض إبلكم» وهي حقوق الزكاة و –الحصة المفروضة. وأصحاب الفرائض: هم الورثة الذين لهم سهام مقدرة كالنصف والثلث.

يتضمنان أقوالًا شعرية مقتبسة من أحد المصادر العبرية القديمة التي كانت ذائعة في بلاد الشرق، وموجزًا لنشيد القوس وقد كان مثبتًا بحذافيره في سفر ياشر المضاع.

* * *

وسنلمس ونحن نطالع هذين السفرين طريقة الجمع والتأليف التي عهدناها في سفر التكوين وغيره من أسفار الكتاب المقدس، فقد سرد الكثير من حوادثهما مرتين متتاليتين على نحوين متباينين، وعمد إلى كل قصتين تحكيان حادثًا واحدًا فربط بينهما وألصق إحداهما بالأخرى في سذاجة دون أن يلقي بالًا إلى ما بينهما من تفاوت، ومن ثم دب التشوش والخلل في مواطن شتى من هذين السفرين من كتاب الله.

وحاول مخرجو النسخة الرومانية الكاثوليكية تدارك هذا الخلل بحذف بعض الفِقَر فلم يغن ذلك عنهم شيئًا.

* * *

تقع الحوادث المبثوثة في هذين السفرين في القرن الحادي عشر ق. م أي في العهد الذي بدأ فيه انفصال تاريخ اليهود عن الأساطير والأقاصيص[1] الشعبية. وكانت ممارسة النبوة قد انقطعت فترة غير يسيرة، بعد أن أصبح فريق من الناس يتلقونها بالنظرات الفاحصة.

«وكانت كلمة الرب عزيزة في تلك الأيام. لم تكن رؤيا كثيرة». ١ صموئيل ٣: ١

(١) جمع قصة لا أقصوصة.

وبرز صموئيل ليكون له في بني إسرائيل شأن يؤثر، وتلكم قصته:

كان الرب في تابوته، وكان التابوت في هيكل الرب ببلدة «شيلوه» يبمم شطره النساء العواقر واللواتي في أزواجهن عقم ليفرج عنهم كربتهن، وكثيرًا ما كانت تحدث المعجزة فيرجعن حبالى تختلج الأجنة في أحشائهن. وانتظم الحجيج يومًا امرأة اسمها حنة.

«نذرت نذرًا وقالت يا رب الجنود إن نظرت نظرًا إلى مذلة أمتك وذكرتني ولم تنس أمتك بل أعطيت أمتك زرع بشر فإني أعطيه للرب كل أيام حياته ولا يعلو رأسه موسى».

١ صموئيل ١: ١١

فراق دعاؤها «عالي» سادن[١] الهيكل ورق لها فؤاده، فدعا الرب أن يمنَّ عليها بالولد، واستجاب له الرب، فما عتمت حنة أن:

«حبلت وولدت ابنًا ودعت اسمه صموئيل قائلة لأني من الرب سألته».

١ صموئيل ١: ٢٠

ولما فطمته ذهبت به إلى «عالي» لينشئه عنده ويتخذ منه معوانًا له في سدانة الهيكل، فتقبله عالي بقول حسن وكلف به وآثره على ولديه الفاسقين كاهني الرب «حفني» و«فينحاس» ورشحه ليخلفه على سدانة الهيكل. وترعرع الصبي.

«وكان صموئيل يخدم أمام الرب وهو صبي متمنطق بأفود

(١) سدن الرجل: خدم الكعبة أو بيت الصنم.

من كتان، وعملت له أمه جبة صغيرة.. وكبر الصبي صموئيل عند الرب».

١ صموئيل ٢: ١٨ -٢١

وطمح صموئيل ببصره إلى ما لم يدركه «عالي»، فأعلن أن الرب يزوره ويتحدث إليه كشأنه مع كبار الأنبياء.

«فجاء الرب ووقف ودعا كالمرات السابقة صموئيل صموئيل».

١ صموئيل ٣: ١٠

وهبَّ أهل فلسطين يذودون الغزاة الإسرائيليين عن بلادهم، وتقاعس حليف إسرائيل عن أن يحبو بالنصر شعبه المختار، فلم يجد الكهنة ما يقوون به عزيمة المقاتلين خيرًا من أن يجيئوا بتابوت إلههم فيضعوه بينهم، بيد أن ذلك لم يجدهم فتيلًا.

«وانكسر إسرائيل وهربوا كل واحد إلى خيمته. وكانت الضربة عظيمة جدًّا وسقط من إسرائيل ثلاثون ألف راجل. وأخذ تابوت الله ومات ابنًا عالي حفني وفينحاس».

١ صموئيل ٤: ١٠ -١١

وعلم الشيخ عالي بما حدث فنال منه الجزع وما ونى أن لحق بولديه، فخلفه على سدانة الهيكل صموئيل بن حنة، وطفق يقرع بني إسرائيل وينحي عليهم باللوم والتثريب؛ لأنهم ما زالوا يلجون في المعاصي حتى غضب الرب منهم، فبطش بهم جاعلًا عقابه لهم بأيدي الفلسطينيين.

* * *

وانصرمت بعد ذلك عشرون عامًا كان الفلسطينيون أهل البلاد لا ينفكون خلالها يشدون على الغزاة اليهود، مما ألقى الرعب في قلوبهم وجعل نفوسهم تتفرق شعاعًا، ولم يجدوا موئلًا يلوذون به غير كليم الله صموئيل.

«وقال بنو إسرائيل لصموئيل لا تكف عن الصراخ من أجلنا إلى الرب إلهنا فيخلصنا من يد الفلسطينيين، فأخذ صموئيل حملًا رضيعًا وأصعده محرقة بتمامه للرب. وصرخ صموئيل إلى الرب من أجل إسرائيل فاستجاب له الرب. وبينما كان صموئيل يصعد المحرقة تقدم الفلسطينيون لمحاربة إسرائيل فأرعد الرب بصوت عظيم في ذلك اليوم على الفلسطينيين وأزعجهم فانكسروا أمام إسرائيل».

١ صموئيل ٧: ٨ - ١٠

وهكذا لم يذهب الحمل الرضيع سدى.

كان يهوه يوحي بمشيئته اللدنية إلى صموئيل ساعة فساعة فيتولى صموئيل إنفاذها، ولم يزل صموئيل يصرف أمور قومه إلى أن بلغ أرذل العمر.

«وقضى صموئيل لإسرائيل كل أيام حياته».

١ صموئيل ٧: ١٥

ثم استقضى ولديه على بني جلدته، فتنكب الولدان عن جادة العدل وكانا شرًّا من ولدي أستاذه عالي.

«وكان لما شاخ صموئيل أنه جعل بنيه قضاة[1] لإسرائيل...
ولم يسلك ابناه في طريقه، بل مالا وراء المكسب وأخذا
رشوة وعوّجا القضاء».

١ صموئيل ٨: ١ -٣

وهكذا أرهق هذان الفاسدان، اللذان خرجا من ظهر ذلك العالم، جمهرة الناس وأوقرا ظهورهم، وأيدهما أبوهما بسلطانه الديني، فضاق القوم بالحكومة الدينية وبرموا بألاعيب الكهنة وانبروا يناهضونهم، وجعلوا يتنادون بإحلال الحكم المدني محل الحكم الديني، ثم حزموا أمرهم وأجمعوا رأيهم أن يجبهوا صموئيل بما قر عليه قرارهم.

«فاجتمع كل شيوخ إسرائيل وجاءوا إلى صموئيل إلى الرامة
وقالوا له هو ذا أنت قد شخت وابناك لم يسيرا في طريقك.
فالآن اجعل لنا ملكًا يقضي لنا كسائر الشعوب».

١ صموئيل ٨: ٤ -٥

لقد نقمت الرعية من راعيها ما يكتنف حكمه من فساد وإفساد، وهال القوم أن يؤول أمرهم إلى أحد ولديه الفاسقين. وإذا كان الحكم الديني يورث فالحكم الملكي أحق أن يتبع. بيد أن صموئيل لم تطاوعه نفسه على التسليم بأسباب نقمة القوم فادعى أنهم إنما نزعوا إلى الحكم الملكي طلبًا للقوة العسكرية، وزعم أن مطالبتهم بتغيير نظام الحكم إثم

(١) الصواب أنه جعل ابنيه قاضيين بصيغة المثنى وهي صيغة لا وجود لها في اللغات التي نقل عنها الكتاب المقدس.

كبير لأنه لا ملك إلا يهوه[1].

«ولما رأيتم ناحاش بني عمون آتيا عليكم قلتم لا بل يملك علينا ملك. والرب إلهكم ملككم».

١ صموئيل ١٢: ١٢

وأفتى بأن يهوه هو وحده صاحب الحق في امتلاك أزمة أمورهم وإليه وحده توجيههم الوجهة التي يرضاها، وقرر أن يهوه يوحي إليه بمشيئته فيقوم هو بإبلاغهم إياها. وانفجر يلقي من فيه الشتائم والأسابيب يتنقص قدر الرعية ويقرفها[2] بالاعتداء على حقوق الله، غافلًا عن أن الاعتداء على الحقوق إنما يبلغ درك الشناعة عندما يقع على حقوق الضعفاء الذين لا ناصر لهم ولا معين.

وما فتئ صموئيل يجأر بالشكوى، أما يهوه فقد استسلم للقنوط ولم يجد ما يواجه به شكاية صموئيل إلا شكاية مثلها.

«فقال الرب لصموئيل اسمع لصوت الشعب في كل ما يقولون لك، لأنهم لم يرفضوك أنت بل إياي رفضوا حتى لا أملك عليهم».

١ صموئيل ٨: ٧

---

(١) جاء في النهج أن عليًّا، كرم الله وجهه، لما سمع قول الخوارج إنه «لا حكم إلا لله» قال: كلمة حق يراد بها باطل. نعم لا حكم إلا لله، ولكن هؤلاء يقولون لا إمرة إلا لله. وإنه لا بد للناس من أمير بر أو فاجر، يعمل في إمرته المؤمن ويستمتع فيها الكافر، ويبلغ الله فيها الأجل، ويجمع به الفيء، ويقاتل به العدو، وتؤمن به السبل، ويؤخذ للضعيف من القوي حتى يستريح بر، ويستراح من فاجر.

(٢) قرف فلانًا بكذا: عابه أو اتهمه.

وبذل صموئيل جهده في إرهاب الشعب؛ ليثنيه عن اطراح الحكومة الدينية والاستعاضة منها بالحكم الملكي.

«فكلم صموئيل الشعب الذين طلبوا منه ملكًا بجميع كلام الرب. وقال هذا يكون قضاء الملك الذي يملك عليكم. يأخذ بنيكم ويجعلهم لنفسه لمراكبه وفرسانه فيركضون أمام مراكبه. ويجعل لنفسه رؤساء ألوف ورؤساء خماسين فيحرثون حراثته ويحصدون حصاده ويعملون عدة حربه وأدوات مراكبه. ويأخذ بناتكم عطارات[٣] وطباخات وخبازات. ويأخذ حقولكم وكرومكم وزيتونكم أجودها ويعطيها لعبيده ويعشر زروعكم وكرومكم ويعطي لخصيانه وعبيده. ويأخذ عبيدكم وجواريكم وشبانكم الحسان وحميركم ويستعملهم لشغله. ويعشر غنمكم وأنتم تكونون له عبيدًا. فتصرخون في ذلك اليوم من وجه ملككم الذي اخترتموه لأنفسكم فلا يستجيب لكم الرب في ذلك اليوم».

١ صموئيل ٨: ١٠ -١٨

ولكن القوم صمموا في خطتهم، وأصروا على مطلبهم.

«فأبى الشعب أن يسمعوا الصوت صموئيل وقالوا لا بل يكون علينا ملك».

١ صموئيل ٨: ١٩

ويومًا رعد السحاب وهطل المطر مدرارًا في موسم الحصاد فزعم

(٣) والصواب: صانعات حلواء confectionaries.

صموئيل أن يهوه فعل ذلك تلبية لدعائه هو.

«أما هو حصاد الحنطة اليوم. فإني أدعو الرب فيعطي رعودًا ومطرًا فتعلمون وترون أنه عظيم شركم الذي عملتموه في عيني الرب فأعطى رعودًا ومطرًا في ذلك اليوم. وخاف جميع الشعب الرب وصموئيل جدًّا».

١ صموئيل ١٢: ١٧ -١٨

ولكن القوم لم يأبهوا لهذه الترهات واستمسكوا بمطلبهم، فلم يسع صموئيل إلا الإذعان، بيد أنه رأى أنه إذا لم يكن مناص من قيام الحكم الملكي، فليكن الملك المختار سهل القياد يتخذ هو منه دمية يحركها بحسب أهوائه. لقد خوله قانون الملوك، الذي حشره الكهنة في سفر التثنية، حقًّا لا يمارى في اختيار شخص الملك، حين يكون قيام الحكم الملكي أمرًا محتومًا.

«متى أتيت إلى الأرض التي يعطيك الرب إلهك وامتلكتها وسكنت فيها فإن قلت اجعل علي ملكًا كجميع الأمم الذين حولي فإنك تجعل عليك ملكًا الذي يختاره الرب إلهك».

تثنية ١٧: ١٤ -١٥

أي الذي يختاره رجال الكهنوت.

* * *

واتفق في تلك الأيام أن خرج من يُدعى شاول بن قيس من سبط بنيامين يطلب أتان له شردت وضلت الطريق، فجاوز في البحث عنها

حمى عشيرته، ولم يزل يضرب في الأرض هو وخادم له حتى وطئا أرض صوف حيث عن لهما أن يقصدا إلى الرائي الذي هناك أي نبي القوم، فقد كانت السيرة.

«سابقًا في إسرائيل هكذا كان يقول الرجل عند ذهابه ليسأل الله. هلم نذهب إلى الرائي. لأن النبي اليوم كان يُدعى سابقًا الرائي».

١ صموئيل ٩: ٩

وقد بذل شاول لذلك الرائي ربع شاقل ليرشده إلى ضالته المنشودة. ولئن كان الرائي قد عجز عن أن يقعده فوق متن أتانه، لقد بوأه مقعد الملك، فقد كان شاول وسيمًا فارع الطول.

«شاب وحسن ولم يكن رجل في بني إسرائيل أحسن منه. من كتفه فما فوق كان أطول من كل الشعب».

١ صموئيل ٩: ٢

فاجتهره[١] صموئيل، فوقع شاول من نفسه موقعًا حسنًا، فأشار إلى شاول أن يصرف غلامه، وما هو إلا أن أتى بقارورة زيت صبها على أم رأسه ومسحه بالزيت ونصبه ملكًا على بني إسرائيل.

«فأخذ صموئيل قنينة الدهن[٢] وصب على رأسه وقبله. وقال أليس لأن الرب قد مسحك على ميراثه رئيسًا».

١ صموئيل ١٠: ١

(١) اجتهره: نظر إليه وعظم في عينيه وراعه جماله وهيئته.

(٢) يقابل هذا اللفظ في الترجمة الإنجليزية **oil** فهو زيت لا دهن.

ويتضح من ذلك أن اختيار شاول للملك قد تم بمحض إرادة صموئيل[1]، وكان ذلك بعد خروج بني إسرائيل من مصر بـ ٥١١ سنة[2].

وأوعز صموئيل إلى شاول أن يشخص إلى جبعة، وهي بلدة زاخرة بأنصاب الفلسطينيين.

«ولما جاءوا إلى هناك إلى جبعة إذا بزمرة من الأنبياء لقيته فحل عليه روح الله فتنبأ في وسطهم. ولما رآه جميع الذين عرفوه منذ أمس وما قبله أنه يتنبأ مع الأنبياء قال الشعب الواحد لصاحبه ماذا صار لابن قيس. أشاول أيضًا بين

---

(١) غير أن هنالك رواية أخرى تعزو انتخابه ملكًا إلى فوزه في قرعة متعددة الدرجات أجراها صموئيل على الملأ من قومه.

«فقدم صموئيل جميع أسباط إسرائيل فأخذ سبط بنيامين. ثم قدم سبط بنيامين حسب عشائره فأخذت عشيرة مطري وأخذ شاول بن قيس. ففتشوا عليه فلم يوجد. فسألوا أيضًا من الرب هل يأتي الرجل أيضًا إلى هنا. فقال الرب هو ذا قد اختبأ بين الأمتعة. فركضوا وأخذوه من هناك فوقف بين الشعب فكان أطول من كل الشعب من كتفه فما فوق».

١ صموئيل ١٠: ٢٠ -٢٤

(٢) هذا إذا صح الحساب الذي يطالعنا به أعمال الرسل، وهو:

«ونحو مدة أربعين سنة احتمل عوائدهم في البرية... وبعد ذلك في نحو أربعمائة وخمسين سنة أعطاهم قضاة حتى صموئيل. ومن ثم طلبوا ملكًا فأعطاهم الله شاول بن قيس رجلًا من سبط بنيامين أربعين سنة».

أعمال ١٣: ١٨ -٢١

٤٠ + ٤٥٠ + ٢١ = ٥١١

وبمقتضى هذا الحساب يؤرخ بناء سليمان هيكله بـ ٥٩٥ سنة بعد خروج بني إسرائيل من مصر ٥١١ + ٤٠ شاول + ٤٠ داود + ٤ من حكم سليمان وهذا الحساب يخالف ما ذكر من أنه: «كان في سنة الأربعمائة والثمانين لخروج بني إسرائيل من أرض مصر في السنة الرابعة لملك سليمان عن إسرائيل في شهر زيو وهو الشهر الثاني أنه بنى البيت للرب».

١ ملوك ٦: ١

الأنبياء. فأجاب رجل من هناك وقال ومن هو أبوهم. ولذلك ذهب مثلًا أشاول أيضًا بين الأنبياء[1].

١ صموئيل ١٠: ١٠ -١٢

وزحف ناحاش ملك بني عمون على يابيش جلعاد يريد أن يستأسر أهلها، فأرسلوا إلى شاول يستنجدون به.

«فحل روح الله على شاول عندما سمع هذا الكلام وحمى غضبه جدًّا».

١ صموئيل ١١: ٦

وأعلن شاول النفير العسام وحشد جيشًا كبيرًا دحر به العمونيين، فازداد الشعب تعلقًا به، وأقبلوا يجددون له البيعة. على أن هذا النصر المؤزر لم يأخذ بلب صموئيل ولم يصرفه عن اللهج بما أولع به من حديث الملك الذي خلع منه يهوه.

«قلتم لي لا بل يملك علينا ملك. والرب إلهكم ملككم».

١ صموئيل ١٢: ١٢

فمضى يبذر بذور الفتنة ويوحي إلى الناس أنهم بجنوحهم إلى

---

(١) ولكن هناك رواية أخرى تسرد لنا قصة تنبؤ شاول على نحو مغاير يصور لنا شاول في صورة لا تنبغي له وهي تقول إن شاول أرسل جنوده ليقبضوا على داود.

«فأرسل شاول رسلًا لأخذ داود ولما رأوا جماعة الأنبياء يتنبأون وصموئيل واقفًا رئيسًا عليهم كان روح الله على رسل شاول فتنبأوا هم أيضًا. فذهب هو أيضًا إلى الرامة وجاء إلى البئر العظيمة التي عند سيخو وسأل وقال أين صموئيل وداود؟ فقيل ها هما في نايوت في الرامة. فذهب إلى هناك إلى نايوت في الرامة. فخلع هو أيضًا ثيابه وتنبأ هو أيضًا أمام صموئيل وانطرح عريانًا ذلك النهار كله وكل الليل. لذلك يقولون أشاول أيضًا بين الأنبياء».

١ صموئيل ١٩: ٢٠ -٢٤

النظام الملكي قد أتوا إحدى الكبر.

«وقال جميع الشعب لصموئيل صلّ عن عبيدك إلى الرب إلهك حتى لا نموت. لأننا قد أضفنا إلى جميع خطايانا شرًّا بطلبنا لأنفسنا ملكًا».

١ صموئيل ١٢: ١٩

وأذنت الحرب بالنشوب مرة أخرى، واحتشد الفلسطينيون في «مخماس»، فدب الرعب في أوصال الإسرائيليين، واستنفر شاول قومه فاجتمع حوله لفيف منهم، وأرسل يدعو صموئيل إلى القيام بالمناسك التي لا يجوز إنشاب الحرب قبل القيام بها، ولكن صموئيل تثاقل عن الأمر غير عابئ بمصير عشيرته ومآل عقيدته، صارفًا همه كله إلى سلطانه المخلوع وامتيازاته الملغاة. وانصرم أسبوع كامل ولما يلب الدعوة.

وأحدث هذا التقصير أثرًا وخيمًا في حالتهم؛ إذ أخمد من حماستهم وفل من عزيمتهم، فشرعوا يتسللون من الصفوف وينفضون من حول قائدهم.

«ولما رأى رجال إسرائيل أنهم في ضنك لأن الشعب تضايق، اختبأ الشعب في المغاير والغياض والصخور والصروح والآبار. وبعض العبرانيين عبروا الأردن إلى أرض جاد وجلعاد».

١ صموئيل ١٣: ٦-٧

واستبطأ شاول وصموئيل وضاق بتلبثه ذرعًا. لقد كان يتلهب حماسة ويتحرق توقًا إلى اقتحام حومة الوغى، وها هو ذا يرى رجل

الدين يوشك أن يفسد عليه حملته على أعداء الدين.

ولم يجد مسيح الله ندحة عن أن يقوم بنفسه بالمنسك الديني، فأحرق الحيوانات التي يضحي بها ليشم الرب ريحها، وذلك ما كان يتوقعه منه صموئيل.

«وكان لما انتهى من إصعاد المحرقة إذا صموئيل مقبل فخرج شاول للقائه ليباركه، فقال صموئيل ماذا فعلت. فقال شاول لأني رأيت أن الشعب قد تفرق عني وأنت لم تأت في أيام الميعاد والفلسطينيون متجمعون في مخماس. فقلت الآن ينزل الفلسطينيون إليّ إلى الجلجال ولم أتضرع إلى وجه الرب فتجلدت وأصعدت المحرقة. فقال صموئيل لشاول قد انحمقت. لم تحفظ وصية إلهك التي أمرك بها لأنه الآن كان الرب قد ثبت ملكك على إسرائيل إلى الأبد. وأما الآن فمملكتك لا تقوم».

١ صموئيل ١٣: ١٠ -١٤

وطابت نفس يوناثان بن شاول للجهاد في سبيل ملته، فخرج هو وحامل سلاحه وحدهما يتحسسان العدو، فلما أبصرهما جنود العدو خالوهما طليعة جحفل لجب[١].

«فصعد يوناثان على يديه ورجليه وحامل سلاحه يقتل وراءه».

١ صموئيل ١٤: ١٣

(١) لجب الجيش: صاحوا وأجلبوا. جيش لجب: ذو جلبة وكثرة.

وأوقع يوناثان في جيش العدو هرجًا ومرجًا فتشجع شاول وحمل على العدو فظفر بالنصر في ذلك اليوم واليوم الذي يليه.

«وأخذ شاول الملك على إسرائيل، وحارب جميع أعدائه حواليه موآب وبني عمون وأدوم وملوك صوبه والفلسطينيين وحيثما توجه غلب. وفعل ببأس وضرب عماليق وأنقذ إسرائيل من يد ناهبيه».

١ صموئيل ١٤: ٤٧ -٤٨

١ - فهل قرت بهذه الانتصارات الباهرة عينا صموئيل؟ هل تشفعت هذه البطولة النادرة إلى كاهن بني إسرائيل في منقذ بني إسرائيل؟

٢- وهل كانت نفس صموئيل قبل ذلك قد طابت بالتنكيل الذي أوقعه شاول بقبائل اليهود، التي صدفت عن عبادة الإله القدير يهوه إلى عبادة البعل وعشتاروت، ومن لف لفهما من الآلهة المحدودي القدرة؟

٣- وهل كان ذلك الكاهن قد قنع بما أبدى شاول من حمية مغرقة في سحق المشعوذين والمرجمين بالغيب والمتكلمين بما لا يعلمون ومن إليهم من منافسي الكهنة؟

«وكان شاول قد نفى أصحاب الجان والتوابع من الأرض».

١ صموئيل ٢٨: ٣

كان شاول قد حنا ظهره للكهنة وتركهم يتخذونه مطية ذلولًا تبلغهم أهدافهم، ولكنهم لم يقنعوا بهذا القدر من الولاء وطمحوا إلى أن يجعلوا الكنيسة فوق الدولة، وذلك على حين كان أهل البلاد

ينوطون على شاول أملهم في الحد من سلطان الكهنة. وقد لمس الرجل ما بين مهنتي الملك والكهانة من تضارب وتضاد، وآنس الكهنة منه تناقصًا في الولاء لهم، فوجدوا عليه وعادت شخيمتهم تتلظى على هذا الرجل الذي اغتصب منهم السلطان والذي كلما سمت به انتصاراته الحربية إلى منزلة رفيعة انحطت منزلتهم هم في أعين الشعب، وصحت عزيمتهم على أن يبطشوا به لأنه لم يفطن إلى حقيقة منصبه ولم يدرك أنه ليس إلا خادمًا ليهوه، يهوه الذي يدلي برغبته ويعلن مشيئته بلسان نبيه صموئيل.

«وقال صموئيل لشاول: إياي أرسل الرب لمسحك ملكًا على شعبه إسرائيل. والآن فاسمع صوت كلام الرب. هكذا يقول رب الجنود. إني قد افتقدت[1] ما عمل عماليق بإسرائيل حين وقف له في الطريق عند صعوده من مصر. والآن اذهب واضرب عماليق وحرموا كل ماله ولا تعف عنهم بل اقتل رجلًا وامرأة. طفلًا ورضيعًا. بقرًا وغنمًا. جملًا وحمارًا».

١ صموئيل ١٥: ١ -٣

يا لهذا الذي يزعم أنه ينطق بصوت سيده من مجرم حرب يأمر بتقتيل الأسرى وغير المحاربين وبإبادة شعب بأكمله وبإهلاك حيواناته معه وإغراق بلاده بطوفان دموي غامر لا ينجو منه إنسان أو حيوان.

وفيم كان ذلك؟ هل اعتدى هذا الشعب على بني إسرائيل. كلا، وإنما هو أبى أن يدعهم يعتدون عليه. ومتى كان ذلك؟ في هذا العام؟

(١) يقابلها في الترجمة الإنجليزية **I remember**.

في العام الذي سبقه؟ كلا، بل كان ذلك منذ أربعة قرون خلت.

ذلك أن موسى، الذي هو -بشهادة التوراة- صاحب الفضل في ابتداع الناموس القاضي بإبادة الشعوب التي يوقعها جدها العاثر في طريق بني إسرائيل[1]، أراد أن يقتحم بلادهم، وكان بديهًا أن يصون القوم ديارهم ويحموا ذمارهم[2]، فأرسل موسى عليهم جيشًا يقوده خادمه السفاح يشوع، وجلس هو على ربوة يشهد المعركة.

«وكان إذا رفع موسى يده أن إسرائيل يغلب وإذا خفض يده أن عماليق يغلب فلما صارت يدا موسى ثقيلتين أخذا حجرًا ووضعاه تحته فجلس عليه. ودعم هرون وحور يديه الواحد من هنا والآخر من هناك. فكانت يداه ثابتتين إلى غروب الشمس. فهزم يشوع عماليق وقومه بحد السيف».

خروج ١٧: ١١ -١٣

وها هو ذا صموئيل قد جاء بعد أربعة قرون يبيد ذرية الذين نجوا من سيف يشوع عقابًا لهم على جريرة أسلافهم إذ نافحوا عن وطنهم.

وقد امتثل شاول ما أمره به صموئيل ونصب للعمالقة حربًا عبوسًا

---

(١) «حين تقترب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك، وإن لم تسالمك بل عملت معك حربًا فحاصرها. وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف. وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمتها فتغنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك. هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا. وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيبًا فلا تستبق منها نسمة ما بل تحرمها تحريمًا».
تثنية ٢٠: ١٠ -١٧

(٢) الذمار: كل ما يلزمك حفظه وحياطته وحمايته والدفع عنه.

أبدى فيها شجاعة وبراعة فظهر عليهم واخترمهم. بيد أنه رأى -وأقره عيون القوم على رأيه- أن من الأفن[1] أن يهلك جياد الحيوانات المنتوجة من سلالات ممتازة، ثم إنه استعمل حقه بوصفه قائدًا وملكًا عفا عن أجاج ملك عماليق وحقن دمه. ولكن سيول الدماء الجارية على أوداج الشيوخ والنساء والأطفال لم ترو ظمأ صموئيل، ولم تشبع أشلاؤهم قرمه، ولم تطب نفسه بكل ما عم بلاد العمالقة من تدمير وتحريق وتنكيل، فزعم أن يهوه قال له:

«ندمت[2] على أني قد جعلت شاول ملكًا لأنه رجع من ورائي ولم يقم كلامي».

١ صموئيل ١٥: ١٠

وبكر على شاول يعيبه ويجبهه بالتهمة وينذره بسوء المصير.

«لأنك رفضت كلام الرب رفضك من الملك».

١ صموئيل ١٥: ٢٣

وكان شاول، كأبناء عصره، يؤمن بترهات الكذبة من الأنبياء وأراجيف المضللين من الكهان، فلما فوجئ بهذه المقالة، قدر أن وراءها شرًّا مستطيرًا، فاستبد به الوجل وحاول أن يستغفر من ذنبه، ولكن هيهات أن يغفر رجال الكهنوت لمن انتزع منهم صولجان الملك بعد أن أطبقوا أيديهم عليه مئين من السنين. لقد ظلت نيران الحقد في

(١) أفن الرجل وأفن (بالبناء للمجهول): ضعف رأيه.

(٢) وازن بين هذا وبين قوله:

«نصيح إسرائيل لا يكذب ولا يندم لأنه ليس إنسانًا ليندم».

١ صموئيل ١٥: ٢٩

صدر صموئيل متأججة لا تخمد حتى بعد أن خمدت أنفاسه ووارى التراب جثمانه، فعندما استحضرت ساحرة «عين دور» روحه تلبية لرغبة شاول أخذت روحه تلفظ ألفاظ التقريع وتمج عبارات التهديد، وعمد صموئيل إلى ملك عماليق فأرداه بنفسه قتيلًا وبادى[1] شاول بالعداوة وجاهره بأن الرب مزمع[2] عزله عن الملك ليبوئ العرش رجلاً غيره.

«قد انتخب الرب لنفسه رجلًا حسب قلبه وأمره الرب أن يترأس على شعبه لأنك لم تحفظ ما أمرك به الرب».

١ صموئيل ١٣: ١٤

فمن عسى أن يكون هذا الفتى الذي هفا إليه فؤاد الرب أو بالحري فؤاد صموئيل؟

هو غلام يافع وسيم.

«أشقر مع حلاوة العينين وحسن المنظر».

١ صموئيل ١٦: ١٢

ثم هو إلى جانب ذلك شغاب جريء لا يتحرج عن دنية، ولا يتصون عن مأثم، وهو داود بن يسى البيتلحمي.

وقد كان بود صموئيل أن يشد رحاله إلى بيت لحم[3] ليمسح داود هناك ملكًا على بني إسرائيل، لولا أن الشخوص إلى هناك في تلك الأحوال والملابسات، كان أمرًا قد لا تحمد مغبته ونبي الله رجل

(١) بادي بالعداوة: جاهر بها.

(٢) أزمع الأمر وبه وعليه: أجمع أو ثبت عليه.

(٣) معنى الاسم العبري «بيت الخبز».

فروق[١] يشفق أن يركب الغر[٢]، ومن ثم أوحى إليه ربه أن يصطنع الخديعة ويتوسل بالكذب وإنها لشنشنة نعرفها من يهوه[٣].

«فقال صموئيل كيف أذهب. إن سمع شاول يقتلني. فقال الرب خذ بيدك عجلة من البقر وقل قد جئت لأذبح للرب».

١ صموئيل ١٦: ٢

وسعى نبي الله إلى بيت لحم وإلى بيت داود.

«فأخذ صموئيل قرن الدهن ومسحه في وسط إخوته، وحل روح الرب على داود من ذلك اليوم فصاعدًا».

١ صموئيل ١٦: ١٣

فعل صموئيل فعلته هذه في الخفاء، وأبقى الأمر سرًّا مطويًّا، إذ كان يخشى شاول ويحذره.

وشن رجال الكهنوت على مليكهم وحامي ملتهم حربًا ضروسًا[٤] غير معلنة نغصته ونهكته، ومكنوا منه عميلهم داود، وأوعزوا إلى صنائعهم من خدم القصر أن يلقوا في روع مسيح الرب أنه أضاع ما كان له من حظوة عند ربه، وأن الرب قد سلط عليه روحًا شريرة توشك أن توبقه.

---

(١) الفروق: الشديد الفزع.

(٢) الغرر: التعريض للهلكة.

(٣) فهو يروي في التذاذ واغتباط كيف مكر يعقوب بأبيه إسحق واختلس منه ما كان قد أعده لشقيقه التوأم عيسو بن بركة وكيف مكر كذلك بحميه لابان واستولى بمكره على جانب كبير من غنمه. وقد بارك يهوه الثروات التي حصلها يعقوب وأبوه وجده دون نظر إلى الطريقة التي اتبعها كل منهم في جمع ثروته.

(٤) الحرب الضروس: المهلكة، على التشبيه بالناقة السيئة الخلق التي تعض حالبها.

«وذهب روح الرب من عند شاول وبغته روح رديء من قبل الرب. فقال عبيد شاول له هو ذا روح رديء من قبل الله يبغتك. فليأمر عبيده قدامه أن يفتشوا على رجل يحسن الضرب بالعود ويكون إذا كان عليك الروح الرديء من قبل الله أنه يضرب بيده فتطيب فقال شاول لعبيده انظروا لي رجلًا يحسن الضرب وأتوا به إليّ. فأجاب واحد من الغلمان وقال هو ذا قد رأيت ابنًا ليسي البيتلحمي يحسن الضرب وهو جبار بأس ورجل حرب وفصيح ورجل جميل والرب معه. فأرسل شاول إلى يسى يقول أرسل إلى داود ابنك الذي مع الغنم. فأخذ يسى حمارًا حاملًا خبزًا وزق خمر وجدي ومعزى وأرسلها بيد داود ابنه إلى شاول. فجاء داود إلى شاول ووقف أمامه فأحبه جدًّا وكان له حامل سلاح. فأرسل شاول إلى يسى يقول ليقف داود أمامي لأنه وجد نعمة في عيني. وكان عندما جاء الروح من قبل الله على شاول أن داود أخذ العود وضرب بيده فكان يرتاح شاول ويطيب ويذهب عنه الروح الرديء».

١ صموئيل ١٦: ١٤ -٢٣

وطابت نفس الملك الموعود أن يعمل في خدمة الملك الموجود، وأقبل مسيح الله الجديد على مسيحه العتيد يرفه عن خناقه ويمكن أيدي الكهنة من مخنقه. ولسنا نعلم ما تلك الأرواح الرديئة التي عند الرب والتي ألقى صموئيل بحفنة منها على شاول، ولكنا نعلم أن داود

قد تسنى له أن يدحرها بموسيقاه الهمجية، وأنه أصبح بذلك أول (كدية) يدق (الزار) في التاريخ.

* * *

استؤنفت الحرب بين الإسرائيليين والفلسطينيين وبرز على رأس الفلسطينيين مقاتل عملاق يتجاوز طوله ثلاثة أمتار وتزن درعه ثمانين رطلًا وكانت هيئته تلقي الرغب في قلوب الإسرائيليين.

«فخرج رجل مبارز من جيوش الفلسطينيين اسمه جليات من جت طوله ست أذرع وشبر، وعلى رأسه خوذة من نحاس وكان لابسًا درعًا حرشفيًّا ووزن الدرع خمسة آلاف شاقل نحاس. وجرموقا نحاس على رجليه ومزراق نحاس بين كتفيه. وقناة رمحه كنول النساجين وسنان رمحه ست مئة شاقل حديد وحامل الترس كان يمشي قدامه... وداود هو ابن ذلك الرجل الإفراتي من بيت لحم يهوذا الذي اسمه يسي وله ثمانية بنين[1]... وكان الفلسطيني يتقدم ويقف صباحًا

(١) تقدم بيان ذلك في الإصحاح السابق، ويبدو أن الحوادث المذكورة في الإصحاح الحالي ليست في موضعها الصحيح، ولو أن الإصحاح السابع عشر وضع قبل السادس عشر لكان لهذه الجملة التي تتحدث عن يسى أبي داود وأولاده معنى. ومما يبعث على هذا الاعتقاد أن شاول أبدى أنه لم يكن يعرف داود عندما أجهز داود على جليات الجتي.

«ولما رأى شاول داود خارجًا للقاء الفلسطيني قال لأبنير رئيس الجيش ابن من هذا الغلام يا أبنير؟ فقال أبنير وحياتك أيها الملك لست أعلم... ولما رجع داود من قتل الفلسطيني أخذه أبنير وأحضره أمام شاول ورأس الفلسطيني بيده. فقال له شاول ابن من أنت يا غلام. فقال داود ابن عبدك يسى البيتلحمي». ١ صموئيل ١٧: ٥٥ -٥٨

مع أن الإصحاح السادس عشر يذكر أن شاول رآه أول مرة عندما أحضروه إليه ليضرب العود كي يذب عنه الروح الشريرة.

ومساء أربعين يومًا... فقال رجال إسرائيل أرأيتم هذا الرجل الصاعد. ليعير إسرائيل هو صاعد. فيكون أن الرجل الذي يقتله يغنيه الملك غنى جزيلًا ويعطيه بنته[١] ويجعل بيت أبيه حرًا في إسرائيل[٢]... ومد داود يده إلى الكتف وأخذ منه حجرًا ورماه بالمقلاع وضرب الفلسطيني في جبهته فارتز الحجر في جبهته وسقط على وجهه إلى الأرض. فتمكن داود من الفلسطيني بالمقلاع والحجر وضرب الفلسطيني وقتله. ولم يكن سيف بيد داود. فركض داود ووقف على الفلسطيني وأخذ سيفه واخترطه من غمده وقتله وقطع به رأسه[٣]...

---

(١) يبدو أن تلك المكافآت الجنسية كانت شائعة بين بني إسرائيل، ومن ذلك أنهم عندما واجهوا قرية دبير (وكان اسمها قبلًا «سفر»).

«فقال كالب. الذي يضرب قرية سفر ويأخذها أعطيه عكسة ابنتي امرأة. فأخذها عثنيئيل بن قناز أخو كالب الأصغر منه. فأعطاه عكسة ابنته امرأة».

قضاة ١: ١٢ -١٣

وهكذا فاز الغلام الجسور بابنة أخيه وبنى بها.

(٢) وهل كانوا عبيدًا؟

(٣) وثم رواية أخرى عن مصرع هذا العملاق الفلسطيني تقول إن داود لم يقتله في عهد شاول بل قتله ألحانان في عهد داود، فهو واحد من أربعة من الجبابرة «أولاد رافا» أقبلوا يبغون ببني إسرائيل شرًّا فظهر عليهم بنو إسرائيل وأخمدوا أنفاسهم.

«ثم كانت أيضًا حرب في جوب مع الفلسطينيين فألحانان بن يعري أرجيم البيتلحمي قتل جليات الجتي وكانت قناة رمحه كنول النساجين». ٢ صموئيل ٢١: ١٩

ومن البديه أن جليات هذا لم يقتل إلا مرة واحدة. وهذه الرواية الأخرى أجدر بالتصديق من الأولى، ولكن القصص الشعبية جرت على أن تختار أحد الأفذاذ وتراكم عليه أكداسًا من أعمال البطولة وتنسب إليه ألوانًا من الشجاعة أبداها أبطال أقل شأنًا، فلا غرو أن يعزي عمل الحانان إلى داود، ومما سهل هذا التخليط بين الحق والباطل أن القصة كتبت بعد انقضاء زمن بعيد على الزمن الذي وقعت فيه أحداثها.

هذا وقد لاحظ كاتبو سفري أخبار الأيام ما بين الروايتين من تضارب أرادوا أن يتداركوه فقالوا:

وأخذ داود رأس الفلسطيني وأتى به إلى أورشليم[1]. ووضع أدواته في خيمته».

١ صموئيل ١٧: ٥٤

* * *

وأحب يوناثان داود حبًّا جمًّا، وكان يوناثان فتى نبيل المشاعر كريم الشمائل، فلم يطو صدره على حسد لداود، بل جعله عدل نفسه.

«وقطع يوناثان وداود عهدًا لأنه أحبه كنفسه وخلع يوناثان الجبة التي عليه وأعطاها لداود مع ثيابه وسيفه وقوسه ومنطقته».

١ صموئيل ١٨: ٣-٤

لقد تبادلا ثيابهما، ولم يكن هذا التعاهد على الصداقة والإخلاص مألوفًا بين العبرانيين.

أما شاول فإنا نرى منه أمورًا عجيبة يناقض بعضها بعضًا، وليس لها من تعليل إلا أنها رجس[2] من عمل الشيطان الذي سلطه الرب عليه:

«وكانت أيضًا حرب مع الفلسطينيين فقتل ألحانان بن باعور لحمي أخا جليات الجتي، وكانت قناة رمحه كنول النساجين».

١ أخبار الأيام ٢٠: ٥

وكلمة لحمي تعني البيتلحمي.

وهذا مثال للطريقة التي كان يلجأ إليها اليهود في القرن الثالث عشر هربًا من الاعتراف بما بين النصوص المختلفة من تناقض صريح.

(١) من المستحيل أن يكون داود قد ذهب برأس جليات إلى أورشليم؛ إذ إن أورشليم كانت في ذلك العهد لا تزال في أيدي أصحابها الكنعانيين. وهذا الخطأ في مراعاة الأزمنة التاريخية للحوادث هو أيضًا وليد تدوين هذه القصة وقد بعد لعهد بما كان من أحداثها.

(٢) الرجس: القذر و -العمل المؤدي إلى العذاب و -الغضب.

١- فهو يوجس خيفة من داود وينفس عليه بما حظي به من ترنم فتيات العاصمة باسمه وإشادتهن بالبطولة التي أبداها لما شبح رأس العملاق جليات وبطحه[١] أرضًا ثم أجهز عليه.

٢- وهو يباديه بالعداوة من غير أن نعثر على بيان مفصل للأحداث التي حولت قلبه عنه وأوغرت صدره عليه.

٣- وهو يرشقه بالرمح مرتين فتنبو[٢] عنه الطعنتان. وقد ذكرت هذه الواقعة في كل من الإصحاحين الثامن عشر والتاسع عشر فأصبح يخيل إلى القارئين أن ثم حادثين من هذا القبيل، وأنى لهم أن يعلموا أن الإصحاحين المذكورين إن هما إلا صورتان لمتن واحد.

وثم موازنة بين الصورتين:

الآية	الإصحاح ١٨	الآية	الإصحاح ١٩
١٠	وكان في الغد أن الروح الرديء من قبل الله اقتحم شاول وجن في وسط البيت وكان داود يضرب بيده كما في يوم فيوم وكان الرمح بيد شاول.	٩	وكان الروح الرديء من قبل الرب على شاول وهو جالس في بيته ورمحه بيده وكان داود يضرب باليد.
١١	فأسرع شاول الرمح وقال اضرب داود حتى إلى الحائط فتحول داود من أمامه مرتين.	١٠	فالتمس شاول أن يطعن داود بالرمح حتى إلى الحائط ففر من أمام شاول فضرب الرمح إلى الحائط.

(١) بطحه: ألقاه على وجهه.

(٢) نبا بصره: تجافى وتباعد. نبا السهم عن الهدف: قصر ولم يصبه.

٤- وهو يدعوه إلى تزوج ابنته الكبرى مرب ثم لا يلبث أن يزفها إلى المدعو عدريئيل المحولي.

٥- وهو يقصي عنه داود بأن يجعله رئيس ألف في جيشه.

«وكان جميع إسرائيل ويهوذا يحبون داود لأنه يخرج ويدخل أمامهم».

١ صموئيل ١٨: ١٦

ولسنا نفهم ما المقصود من دخوله وخروجه أمامهم ولا كيف يتولد من ذلك حب الشعب إياه؟

٦- بيد أن لشاول ابنة أخرى[١] تنقذ القصة من الاقتضاب[٢] ومن ثم فإن شاول يدعو داود إلى تزوج ابنته الصغرى ميكال.

«وقال شاول أعطيه إياها فتكون له شركًا وتكون يد الفلسطينيين عليه. وقال شاول لداود تصاهرني اليوم»[٣].

١ صموئيل ١٨: ٢١

ما أبشع أن يزف المرء ابنته إلى رجل، لا من أجل الحب أو طلبًا للمجد أو رغبة في تكوين أسرة سعيدة، ولكن لكي يجعل من تلك الابنة شركًا لزوجها.

٧- وقد انتهز مسيح الرب هذه المناسبة السعيدة فاحتال لهلاك صهره المنتظر إذ فرض عليه أن يمهر ابنته.

---

(١) لولاها لما ظهر يسوع؟

(٢) اقتضبه: قطعه، تقول: كان يحدثنا فجاء زيد واقتضب حديثه أي اقتطعه وانتزعه.

(٣) وصواب الترجمة أنه سيزوجه «إحدى ابنتيه» فحذفت الترجمة العربية هذه الكلمة.

«مئة غلفة من الفلسطينيين للانتقام من أعداء الملك».

١ صموئيل ١٨: ٢٥

إنه لم يطلب نقودًا أو جلودًا من حيوانات نادرة بل غلفات. وإن صناع الكتاب المقدس هم وحدهم الذين يدور بأخلادهم ابتداع هذا الصداق العجيب. وإنه لحسن أن الناس لم تنهج هذا النهج فيتسلل كل راغب في الزواج إلى بلد متاخم ليقتل طائفة من سكانه ويعود غانمًا قلفات الغلف أو خشفات المختونين.

ومهما يكن من أمر، فقد استخف الفرح داود بأن يصهر إلى الملك فأتى بضعفي ما طلب منه أداؤه من القلفات.

٨- وزف الملك ابنته ميكال إلى داود، وأقسم شاول لابنه يوناثان ليحقنن دم داود.

«حي هو الرب لا يقتل».

١ صموئيل ١٩: ٦

٩- بيد أنك تجد ولما تقرأ غير أربعة أسطر أخرى أن مسيح الرب قد حنث في قسمه.

«فالتمس شاول أن يطعن داود بالرمح حتى إلى الحائط ففر من أمام شاول فضرب الرمح إلى الحائط».

١ صموئيل ١٩: ١٠

وهكذا نجا داود مرة ثالثة.

١٠- وأمر شاول جنوده أن يكمنوا عند منزل داود يترصدونه حتى

إذا ما خرج في الصباح أردوه قتيلًا، غير أن ميكال ابنة شاول أعانت زوجها على الفرار من أبيها، فأخرجته من النافذة وأرقدت في فراشه صنمه المعبود، ويبدو أنه كان يضاهيه في جرمه، ووسدته وسادة من شعر المعزى، موهمة جنود الملك أن زوجها طريح الفراش.

«فأخذت ميكال الترافيم[1] ووضعته في الفراش ووضعت لبدة المعزى تحت رأسه وغطته بثوب».

١ صموئيل ١٩: ١٣

ولما كشف الجنود خدعة ميكال وما بذلته من معاونة لعدو أبيها الطامع في عرشه عاتبها أبوها على ما كان منها فأخبرته أنها إنما فعلت ذلك على الرغم منها إذ إن زوجها تهددها بالقتل. وسنرى فيما بعد كيف جحد داود صنيع هذه الزوجة الوفية وجزاها به شرًّا.

١١- وغادر داود العاصمة ميممًا صوب صموئيل في نايوت من أرباض الرامة، على أننا لا نلبث أن نجده في حاضرة الملك محتفظًا بمنصبه بين حاشية الملك ونجد يوناثان على غير بصر بالخطر الذي يتهدد صديقه الحميم، ونجد شاول يسأل عن علة تخلف أكيله داود عن مؤاكلته، وكأنما لم يكن شيء مما كان.

---

(١) هي إلهة منزلية كانت الأسر تتوقع منها أن تسبغ على أبنائها العيش الرخي بأن تزودهم بالأطعمة وفق حاجتهم وتمدهم بما يكفيهم من مؤونة وتكفل لهم صحة البدن ووفرة العافية، وهي تعد من الأوثان. «لأن التمرد كخطية العرافة. والعناد كالوثن والترافيم».

١ صموئيل ١٥: ٢٣

فالترافيم هو صنم الإله أو الإله نفسه حالًا بالضم.

ويتضح مما تقدم أن داود كان يعبد هذا النوع من الأصنام. وسنرى فيما يلي أن ابنه سليمان قد بذه في ذلك فعبد آلهة جميع الشعوب المجاورة إرضاء لنسائه المختلفات أجناسًا.

١٢- ورغب داود إلى[١] يوناثان أن يستبين له نية أبيه من نحوه كأنما كان الأمر لا يزال بحاجة إلى من يستبين.

ونقم شاول من ابنه أنه مكن عدوه من أن يفلت من قبضته.

«فحمي غضب شاول على يوناثان وقال له يا ابن المتعوجة المتمردة أما علمت أنك قد اخترت ابن يسى لخزيك وخزي عورة أمك. لأنه ما دام ابن يسى حيًّا على الأرض لا تثبت أنت ولا مملكتك. والآن أرسل وأت به إليَّ لأنه ابن الموت هو».

١ صموئيل ٢٠: ٣٠-٣١

لقد كان شاول حكيمًا بعيد النظر ففطن إلى موطن الخطر، ولكن جده العاثر جعل ابنه يخالف عن سياسته ويحالف عدوه.

١٣- وآذن يوناثان داود بما يحيق به من الخطر فهرب إلى بلدة نوب حيث قصد إلى الكاهن أخيمالك. وأبدى الكاهن دهشة لقدوم داود وحده في غير رفقة من أحد، ولم يصدقه داود الحديث بل كذب عليه قائلًا:

«إن الملك أمرني بشيء وقال لي لا يعلم أحد شيئًا من هذا الأمر».

١ صموئيل ٢١: ٢

ولعل داود رجع إلى يهوه فيما تورط فيه من مأزق فأوحى إليه

(١) رغب إليه: ابتهل إليه.

أن يستنجى بالكذب. ولطالما أشار نصيح إسرائيل بهذه الوسيلة التي يتقنها[١].

وطلب داود إلى أخيمالك أن يعيد إليه سيف جليات، ولسنا نعلم من الذي أودع صومعته هذا السيف وقد كان آخر عهدنا به في خيمة داود[٢].

وأحل داود لنفسه ولرجاله أن يأكلوا خبز التقدمة وهو (تابو) محرم على غير الكهنة[٣].

وخدع الكاهن بتكاذيب صهر الملك وصاحب سره فكلفه ذلك رأسه ورؤوس العشرات من زملائه والآلاف من أهل بلدته.

«فقال الملك لدواغ در أُنت وقع بالكهنة. فدار دواغ الأدومي ووقع هو بالكهنة وقتل في ذلك اليوم خمسة وثمانين رجلًا لابسي أفود كتان. وضرب نوب مدينة الكهنة بحد السيف. الرجال والنساء والأطفال والرضعان والثيران والحمير

(١) «فقال الرب من يغوي آخاب فيصعد ويسقط في راموت جلعاد. فقال هذا هكذا وقال ذاك هكذا. ثم خرج الروح ووقف أمام الرب وقال أنا أغويه. وقال له الرب بماذا. فقال أخرج وأكون روح كذب في أفواه جميع أنبيائه. فقال إنك تغويه وتقتدر. فاخرج وافعل هكذا».

١ ملوك ٢٢: ٢٠ -٢٢

(٢) «وأخذ داود رأس الفلسطيني وأتى به إلى أورشليم ووضع أدواته في خيمته».

١ صموئيل ١٧: ٥٤

(٣) «فقال لهم» المسيح «أما قرأتم ما فعله داود حين احتاج وجاع هو والذين معه كيف دخل بيت الله في أيام أبياثار رئيس الكهنة وأكل خبز التقدمة الذي لا يحل أكله إلا للكهنة، وأعطى الذين كانوا معه أيضًا». مرقس ٢: ٢٥- ٢٦.

على أننا نرى من (١ صموئيل ٢١ :٦) أن انتهاك داود للتابو على النحو المذكور لم يكن في أيام أبياثار بل في أيام أبيه الكاهن أخيمالك.

والغنم بحد السيف. فنجا ولد واحد لأخيمالك بن أخيطوب اسمه أبياثار وهرب إلى داود».

١ صموئيل ٢٢: ١٨ -٢٠

١٤- أما داود فقد هرب من نوب حاملًا سيف العملاق جليات الجتي ولجأ إلى عدو قومه أخيش ملك جت أي ملك جليات الذي صرعه هو[١]، ثم ما عتم أن أدرك أنه غرر بنفسه، ولم يجد وسيلة يستنقذ بها حياته إلا أن يتجنن عليهم[٢].

«فغير عقله في أعينهم وتظاهر بالجنون بين أيديهم وأخذ يخربش على مصاريع الباب ويسيل ريقه على لحيته».

١ صموئيل ٢١: ١٣

ويبدو أن أخيش هذا كان إنسانًا لين الجانب فلم ير أن ينتقم لبطله الذي قُتل غيلة وخلى سبيل قاتله.

«فذهب داود من هناك ونجا إلى مغارة عدلام فلما سمع إخوته وجميع بيت أبيه نزلوا إليه إلى هناك. واجتمع إليه كل رجل متضايق وكل من كان عليه دين وكل رجل مر النفس فكان عليهم رئيسًا وكان معه نحو أربع مئة رجل».

١ صموئيل ٢٢: ١ -٢

مرحي مرحي. ها هو ذا ملك إسرائيل الممسوح بالزيت بأمر الرب

(١) كلمة «هو» لا محل لها هنا والصواب: ووثب على الكهنة.

(٢) تجنن على فلان: أرى من نفسه الجنون.

قد اختزل مكانته وقنع بأن يكون شيخ منسر[1].

١٥- ثم لجأ داود إلى رجل آخر من أعداء ملته هو ملك موآب.

«وذهب داود من هناك إلى مصفاة موآب وقال لملك موآب ليخرج أبي وأمي إليكم حتى أعلم ماذا يصنع لي الله، فودعهما عند ملك موآب فأقاما عنده كل أيام إقامة داود في الحصن».

١ صموئيل ٢٢: ٣-٤

١٦- وخرج شاول يطلب حياة داود، بيد أن داود كان هو الذي ظفر بغريمه واقتنص في حبالته ذاك الذي جاء يبغي احتباله، إلا أنه تأثم وأبى أن يركب بالأذى مسيح الله. وأشهد داود شاول على بغيه فاستعبر[2] شاول وأنحى على نفسه تثريبًا[3] وتقريعًا.

ولقد سردت هذه الحادثة مرتين كلتاهما غير خليقة بالتصديق. ودونك موازنة بين الروايتين.

---

(١) المنسر (كمجلس ومنبر) الخيل من الثلاثين إلى المائتين و -قطعة من الجيش تمر قدام الجيش الكبير. وفي الحديث: كلما أظل عليكم منسر من مناسر أهل الشام أغلق كل رجل منكم بابه.

(٢) استعبر الرجل، جرت عبرته.

(٣) ثربه وثرب عليه: قبح عليه فعله، يقال لا تثريب عليكم.

الآية	الإصحاح ٢٤	الآية	الإصحاح ٢٦
٣	وكان هناك كهف فدخل شاول لكي يغطي رجليه وداود ورجاله كانوا جلوسًا في مغابن الكهف.	٧	فجاء داود وأبيشاي إلى الشعب ليلًا وإذا بشاول مضطجع نائم عند المتراس ورمحه مركوز في الأرض.
٤	فقال رجال داود له هو ذا اليوم الذي قال لك عنه الرب هأنذا أدفع عدوك ليدك.	٨	فقال أبيشاي لداود قد حبس الله اليوم عدوك في يدك. فدعني الآن أضربه بالرمح إلى الأرض دفعة واحدة ولا أثني عليه.
٦	فقال لرجاله حاشا لي من قبل الرب أن أعمل هذا الأمر بسيدي مسيح الرب فأمد يدي إليه لأنه مسيح الرب هو.	٩	فقال داود لأبيشاي لا تهلكه فمن الذي يمد يده إلى مسيح الرب ويتبرأ.
٤	فقام داود وقطع طرف جبة شاول سرًّا.	١٢	فأخذ داود الرمح وكوز الماء من عند رأس شاول وذهبا.
٨	ثم قام داود بعد ذلك وخرج من الكهف ونادى وراء شاول.	١٣ ١٤	وعبر داود إلى العبر ووقف على رأس الجبل. ونادى.
٩	وقال داود لشاول لماذا تسمع كلام الناس القائلين هو ذا داود يطلب أذيتك.	١٨	ثم قال لماذا سيدي يسعى وراء عبده لأني ماذا عملت وأي شر بيدي.
١١	فانظر يا أبي انظر أيضًا طرف جبتك بيدي.	٢٢	هو ذا رمح الملك فليعبر واحد من الغلمان ويأخذه.

الآية	الإصحاح ٢٤	الآية	الإصحاح ٢٦
١٤	وراء من خرج ملك إسرائيل. وراء من أنت مطارد. وراء كلب ميت. وراء برغوث واحد.	٢٠	إن ملك إسرائيل قد خرج ليفتش على برغوث واحد.
١٦	قال شاول أهذا صوتك يا ابني داود. ورفع شاول صوته وبكى.	٢١	فقال شاول قد أخطأت. ارجع يا ابني داود لأني لا أسيء إليك بعد من أجل أن نفسي كانت كريمة في عينيك. هو ذا قد حمقت وضللت كثيرًا جدًّا.
٢٢	ثم ذهب شاول إلى بيته وأما داود ورجاله فصعدوا إلى الحصن.	٢٥	ثم ذهب داود في طريقه ورجع شاول إلى مكانه.

لم يوضح الإصحاح الرابع والعشرون كيف غفل شاول ومعيته فلم ينتبهوا إلى داود حين قد جبة شاول، أما الإصحاح السادس والعشرون فقد فطن إلى هذه النقطة. وكان داود قد طلب إلى أبيشاي بن صروية أخي يوآب أن يلتقط له الكوز والرمح الموكوز[1]، ولكن سرعان ما رأينا داود يفعل ذلك بنفسه، ثم يتسلل هو ورفيقه إلى خارج، ولم ينتبه أحد إلى ما كان منهما وذلك لمعجزة حدثت.

«لأنهم جميعًا كانوا نيامًا لأن سبات الرب وقع عليهم».

١ صموئيل ٢٦: ١٢

* * *

(١) وكز الرمح في الأرض: ركزه.

أما داود فقد عاش خصيمًا للقانون يغير بعصابته على الآمنين ويقسرهم على أداء الإتاوة له.

«وكان رجل في معون وأملاكه في الكرمل وكان الرجل عظيمًا جداوله ثلاثة آلاف من الغنم وألف من المعز وكان يحز غنمه في الكرمل واسم الرجل نابال واسم امرأته أبيجايل. وكانت المرأة جيدة الفهم وجميلة الصورة. وأما الرجل فكان قاسيًا ورديء الأعمال».

١ صموئيل ٢٥: ٢-٣

لم توضح لنا القصة لم وصفت هذا الرجل الـ«عظيم جدًّا» بأنه «رديء الأعمال»، ولم تذكر لنا مثلًا لقسوته ورداءته، بل ذكرت أمثلة لقسوة داود ورداءته، ومن الواضح أن الكهنة يمهدون بهذا الوصف لتسويغ العدوان الذي يبيت له، وقد جعلوا اسم الرجل «نابال» أي الأحمق، وهي سنة نعرفها من واضعي هذه القصص الدينية؛ إذ يختارون لأشخاصها من الأسماء ما يناسب الأفعال المعزوة إليهم[١].

أرسل داود نفرًا من غلمانه إلى نابال يطلب إليه أداء الإتاوة. وهذا نص رسالته:

«حييت وأنت سالم وبيتك سالم وكل مالك سالم. والآن قد سمعت أن عندك جزازين. حين كان رعاتك معنا لم نؤذهم

(١) فاسم أبرام يعني الأب الأعلى لأن إبراهيم هو الأب لجميع كبار الأنبياء عند اليهود والنصاري والمسلمين، واسم يهوذا الأسخربوطي معناه اليهودي الخائن لأنه أسلم يسوع المسيح إلى أعدائه، واسم حواء معناه أم الأحياء، وهلم جرًّا.

ولم يفقد لهم شيء كل الأيام التي كانوا فيها في الكرمل. اسأل غلمانك فيخبروك. فليجد الغلمان نعمة في عينيك لأننا قد جئنا في يوم طيب. فأعط ما وجدته يدك لعبيدك ولابنك داود».

١ صموئيل ٢٥: ٦-٨

وكان من الطبيعي أن يذود الرجل عن كرامته وعن ثروته التي جمعها بشق النفس فلا يذعن للتهديد ويستنيم للابتزاز. إن الدول تنفق ملايين الجنيهات في تقوية دفاعها ولا تدفع مليمًا واحدًا على سبيل الجزية، وقد رد على «عبيد» داود بسؤال استنكاري بليغ.

«من هو داود ومن هو ابن يسي. قد كثر اليوم العبيد الذين يفحصون كل واحد من أمام سيده. أآخذ خبزي ومائي وذبيحي الذي ذبحت لجازي وأعطيه لقوم لا أعلم من أين هم».

١ صموئيل ٢٥: ١٠: ١١

ورجع الشطار[١] إلى شيخ المنسر برجع رسالته.

«فقال داود لرجاله ليتقلد كل واحد منكم سيفه فتقلد كل واحد سيفه. وتقلد داود أيضًا سيفه وصعد وراء داود نحو أربع مئة رجل ومكث مئتان مع الأمتعة».

١ صموئيل ٢٥: ١٣

(١) الشاطر من أعيا أهله خبثًا (وأراه مولدًا).

مرحي مرحي. لقد ازداد قطاع الطرق الذين يعملون تحت إمرته فأصبحوا ستمائة من صعاليك[١] اليهود وخلعائهم[٢]. وقد كان داود، كغيره من الأشخاص ذوي البال في الكتاب المقدس، لا يرى الحياة البشرية شيئًا مقدسًا، وها هو ذا قد اعتزم قتل الرجل الكريم النفس الذي لم يفل التهديد من عزيمته فأبى أن يدفع الإتاوة صاغرًا. وها هي ذي أبيجايل الشابة الجميلة تضيق بالشيخ الذي تزوجته من أجل ماله فتنطلق إلى فتى الفتيان مسبوقة بقدر كبير من الزاد تطرفه به، وما إن تمثل بين يديه حتى تنبطح على وجهها وهي لا تفتأ تسب زوجها وتنتقص من مروءته.

«وفيما هي راكبة على الحمار ونازلة في سترة الجبل إذا بداود ورجاله منحدرون لاستقبالها فصادفتهم. وقال داود إنما باطلًا حفظت كل ما لهذا في البرية فلم يفقد من كل ماله وشيء فكافأني شرًّا بدل خير. هكذا يصنع الله لأعداء داود وهكذا يزيد إن أبقيت من كل ما له إلى ضوء الصباح بائلًا بحائط[٣]. ولما رأت أبيجابل داود أسرعت ونزلت عن الحمار وسقطت على رجليه وقالت علي أنا يا سيدي هذا الذنب ودع أمتك تتكلم في أذنيك واسمع كلام أمتك. لا يضعن سيدي قلبه على الرجل اللئيم هذا على نابال لأن كاسمه هكذا هو. نابال اسمه والحماقة عنده[٤]... وقد قام رجل ليطاردك ويطلب

(١) الصعلوك: الفقير. صعاليك العرب أذؤبانها أي لصوصها وفقراؤها.

(٢) الخليع: الولد الذي أبوه خلعه وتبرأ منه، وكان في الجاهلية إذا قال قائل قد خلعته لا يؤخذ بعد بجريرته و –التهتك.

(٣) يا له من تعبير.

(٤) ذلك أن كلمة «نابال» وهي الاسم الذي اختير لبطل القصة معناها الأحمق، وهذه التسمية إن دلت على شيء فإنما تدل على أن القصة موضوعة وضعًا.

نفسك ولكن نفس سيدي لتكن محزومة في حزمة الحيوة مع الرب إلهك وأما أنفس أعدائك فليرم بها كما من وسط كفة القلاع. ويكون عندما يصنع الرب لسيدي حسب كل ما تكلم به من الخير من أجلك ويقيمك رئيسًا على إسرائيل[1]... وإذا أحسن الرب إلى سيدي فاذكر أمتك».

١ صموئيل ٢٥: ٢٠ -٢١

ويبدو من ختام حديثها أن الرب كان قد مال في إحدى جولاته إلى ضيعتها ليسمر معها ويسر إليها ما اعتزمه في شأن داود.

وقد رد داود عليها قائلًا:

«إنك لو لم تبادري وتأتي لاستقبالي لما أبقى لنابال إلى ضوء الصباح بائل بحائط».

١ صموئيل ٢٥: ٣٤

إنه يكرر هذا التعبير الأنيق ليرسخه في أذهان النشء[2] وهو تعبير يراه المهذبون أغلظ من أن تذكر ألفاظه حتى في معاجم اللغة. ثم يقول داود:

---

(١) وقد تحقق ما قدرت فنصب الكهنة داود ملكًا على بني إسرائيل، وهذا أيضًا دليل على التلفيق.

(٢) وقد استخدمه من بعده كاتبو سفري الملوك.

«وأقطع ليربعام كل بائل بحائط» ١ ملوك ١٤: ١٠

«ضرب بيت العشا، لم يبق له بائلًا بحائط» ١ ملوك ١٦: ١١

«وأقطع لآخاب كل بائل بحائط» ١ ملوك ٢٠: ٢١

وأرسل النبي اليشع غلامًا من بني الأنبياء إلى القائد ياهو يمسحه ملكًا على بني إسرائيل ويطلب إليه أن يبيد أسرة الملك آخاب فقال له في عرض حديثه:

«استأصل لآخاب كل بائل بحائط» ٢ ملوك ٩: ٨

وفي مثل هذا المقام يقول الغرب مثلًا «ما بالدار نافخ ضربة» أي نافخ نار أي أحد أو «ما بالدار صافر» أو ديار ومنه ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦].

«انظري. قد سمعت لصوتك ورفعت وجهك»[1].

١ صموئيل ٢٥: ٣٥

وهكذا أفصح فتى الفتيان عن سروره بشخص المرأة الشابة الحسناء الضيقة بزوجها الشيخ والتي أطرفته بهديتها الغالية. وتم التفاهم بينهما.

«فجاءت أبيجايل إلى نابال وإذا وليمة عنده في بيته كوليمة ملك. وكان نابال قد طاب قلبه وكان سكران جدًّا. فلم تخبره بشيء صغير أو كبير إلى ضوء الصباح. وفي الصباح عند خروج الخمر من نابال أخبرته امرأته بهذا الكلام فمات قلبه داخله وصار كحجر. وبعد نحو عشرة أيام ضرب الرب نابال فمات».

١ صموئيل ٢٥: ٢٦ -٣٨

وهكذا خمدت أنفاس الرجل بين يدي زوجته، فكيف كان مسلك داود بإزاء هذه الفاجعة؟

«فلما سمع داود أن نابال قد مات قال مبارك الرب... وأرسل داود وتكلم أبيجايل ليتخذها له امرأة. فجاء عبيد داود إلى أبيجايل إلى الكرمل وكلموها قائلين إن داود قد أرسلنا إليك لكي نتخذك له امرأة. فقامت وسجدت على وجهه إلى الأرض وقالت هو ذا أمتك[2] جارية لغسل أرجل عبيد سيدي».

١ صموئيل ٢٥: ٣٩ -٤١

(١) الترجمة الصائبة للجملة الأخيرة هي: «وتقبلت وشخصك».

(٢) كان الصواب أن تقول لعبيده الموفدين إليها «أمتكم» بصيغة الجمع.

لقد استخفها السرور بزواج فتى أحلامها فنهضت -ولما يطو جثمان زوجها باطن الثرى- ميممة شطر طريد العدالة الخارج على وطنه، مجاهرة بأنها قد طابت نفسًا بأن تكون أمة له وخادمة لعبدانه، وليس في هذا التعبير من غرابة؛ فإن الزوجات عند داود لسن شريكات له في الحياة، وإنما هن إماء يتلهى بكل منهن حينًا ثم يهملها ويتزوج غيرها كلما طاب له أن يفعل.

«ثم بادرت وقامت أبيجايل وركبت الحمار مع خمس فتيات لها ذاهبات وراءها وسارت وراء رسل داود وصارت له امرأة. ثم أخذ أخينوعم من يزرعيل فكانتا له كلتاهما امرأتين».

١ صموئيل ٢٥: ٤٢ -٤٣

* * *

كان داود قد فصل من بلاده وأوطن بأرض الفلسطينيين، فأصبح عاجزًا عن أن يعبد إله إسرائيل؛ لأن الآلهة القوميين لم يكونوا يعبدون في غير مواطن سلطانهم. وقد اعتذر داود إلى شاول من ذلك عندما التقى به بعد، وشكا إليه قومه بني إسرائيل.

«لأنهم قد طردوني اليوم من الانضمام إلى نصيب الرب قائلين اذهب اعبد آلهة أخرى».

١ صموئيل ٢٦: ١٩

فأجابه شاول بأنه قد أقال عثرته، وأباح له أن يعود بين ظهراني عشيرته، ولكن داود كان لا يزال يسيء الظن بشاول، ومن ثم آثر أن يستنجى من ملكه بالليلاذ بملك الأعداء.

«فقام داود وعبر هو والستمئة رجل الذين معه إلى أخيش في جت هو ورجاله، كل واحد وبيته داود وامرأتاه أخينوعم اليزرعيلية وأبيجايل امرأة نابال الكرملية».

١ صموئيل ٢٧: ٢ -٣

وهكذا استعاذ داود بأعداء قومه مصطحبًا ثنتين من زوجاته. وقد أطمعته أريحية أخيش ملك جت، فرغب إليه أن يقطعه قرية نازحة[١] يقيم فيها هو ورجاله بمنأى عن حاضرة الملك.

«فأعطاه أخيش في ذلك اليوم صقلغ. لذلك صارت صقلغ لملوك يهوذا إلى اليوم وكان عدد الأيام التي سكن فيها داود في بلاد الفلسطينيين سنة وأربعة أشهر».

١ صموئيل ٢٧: ٦ -٧

ولبث داود خلال الفترة الطويلة التي قضاها في حمى الملك أخيش يخدع هذا الرجل السمح وينتهك حرمة ضيافته، فقد جعل من قرية صقلغ دريئة[٢] يشن منها هو وعصابته الغارات على جيران الملك من الشعوب المتاخمة التي عاهدها أخيش على أن يوفر لها السلام والأمن.

«وصعد داود ورجاله وغزوا الجشوريين والجزريين والعمالقة لأن هؤلاء من قديم سكان الأرض من عند شور إلى أرض مصر. وضرب داود الأرض ولم يستبق رجلًا ولا امرأة وأخذ غنمًا وبقرًا وحميرًا وجمالًا وثيابًا. ورجع وجاء

(١) نزح الشيء: بعد، يقال نزحت الدار.

(٢) الدريئة هنا: ما يستتر به الصائد ليختل الصيد فإذا أمكنه الرمي رمى.

إلى أخيش. فقال أخيش إذًا لم تغزوا اليوم. فقال داود بلى. على جنوبي يهوذا وجنوبي اليرحمئيليين وجنوبي القينيين. فلم يستبق داود رجلًا ولا امرأة حتى يأتي إلى جت إذ قال لئلا يخبروا عنا قائلين هكذا يفعل داود. وهكذا عادته كل أيام إقامته في بلاد الفلسطينيين».

١ صموئيل ٢٧: ٨-١١

لقد أغار فقتل ونهب وسلب، ثم عمد إلى إخفاء جريمته هذه بجريمة شر منها فأباد ثلاثة شعوب كاملة كانت قد رضيت بالتعايش السلمي وركنت إلى الدعة في ظل الأمان الذي عاهدها عليه الملك المتاخم، وكان داود يخدع الملك أخيش عن نفسه، ويعلل مظاهر النشاط في عصابته بأنه يغير على اليهوذيين.

* * *

واحتشدت جحافل الفلسطينيين لذود الغزاة من بني إسرائيل عن بلادهم، وتلبد الجو في وجه شاول، وأعيت عليه[١] دسائس الكهنة وصنائعهم، وأراد أن يستخير[٢] ربه فإذا هو قد تقاصرت نفسه لفرط ما ألقاه الكهنة في روعه فتجمدت قريحته وتبلدت مخيلته حتى اعتاص عليه أن يرى رؤيا يفسرها بما تشاء له وساوسه وأوهامه فلم يجد بدًّا من الانصراف إلى الجان؛ عوضًا عن الآلهة واللواذ بالسحرة بدلًا من الأنبياء، وليس البون بين الفريقين بالبعيد.

(١) أعيا الماشي: تعب وكلّ وهو دون العجز. أعيا الداء الطبيب: أعجزه. أعيا على فلان الأمر: أعجزه.
(٢) استخار: طلب الخيرة، يقال «استخر الله يخر لك» أي اطلب منه أن يختار لك ما يوافقك.

«فسأل شارل من الرب فلم يجبه الرب لا بالأحلام ولا بالأوريم ولا بالأنبياء. فقال شاول لعبيده فتشوا لي على امرأة صاحبة جان فأذهب إليها وأسألها فقالوا له هو ذا امرأة صاحبة جان في عين دور. فتنكر شاول ولبس ثيابًا أخرى وذهب هو ورجلان معه وجاءوا إلى المرأة ليلًا وقال اعرفي لي بالجان واصعدي لي من أقول لك. فقالت له المرأة هو ذا أنت تعلم ما فعل شاول كيف قطع أصحاب الجان والتوابع من الأرض».

١ صموئيل ٢٨: ٦-٩

أجل، كان شاول قد اصطلم[١] السحرة ومسخري الجان والتوابع[٢] فلم يبق منهم -فيما يبدو- غير هذه المرأة لحاجة القصة إليها. وقد غربت عن الساحرة العليمة فطنتها -نزولًا على حكم السياق- فلم تعرف حقيقة شارل في بادئ الأمر، مع أنه.

«من كتفه فما فوق كان أطول من كل الشعب»[٣].

١ صموئيل ٩: ٢

وطلب إليها شاول أن تستحضر له روح صموئيل، وكان صموئيل قد قضى وخرجت روحه من جسده، لتتم ما كان هو قد أخذ فيه من العمل للتطويح بالملك الذي كانت بداية حكمه نهاية لحكم الكهنة. وتراءت روح صموئيل للساحرة وكأنها تقول له: «هملت. أنا روح أبيك» فزعقت المرأة.

---

(١) صلمه: قطعه، وقيل قطع أذنه وأنفه من أصلهما. اصطلمه: استأصله «اصطلمهم الدهر».

(٢) التابع: الجني يتبع الإنسان حيث ذهب. والتابعة: الجنية.

(٣) ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

وسألها شاول عما ترى.

«فقالت المرأة لشارل رأيت آلهة[1] يصعدون من الأرض. فقال لها ما هي صورته. فقالت رجل شيخ صاعد وهو مغطى بجبة. فعلم شاول أنه صموئيل فخر على وجهه إلى الأرض وسجد. فقال صموئيل لشاول لماذا أقلقتني بإصعادك إياي. فال شاول قد ضاق بي الأمر جدًّا. الفلسطينيون يحاربونني والرب فارقني ولم يعد يجيبني لا بالأنبياء ولا بالأحلام فدعوتك لكي تعلمني ماذا أصنع. فقال صموئيل ولماذا تسألني والرب قد فارقك وصار عدوك. وقد فعل الرب لنفسه كما تكلم عن يدي وقد شق الرب المملكة من يدك وأعطاها لقريبك[2] داود لأنك لم تسمع لصوت الرب ولم تفعل حمو غضبه في عماليق لذلك قد فعل الرب بك هذا الأمر اليوم. ويدفع الرب إسرائيل أيضًا معك ليد الفلسطينيين وغدًا أنت وبنوك تكونون معي ويدفع الرب جيش إسرائيل أيضًا ليد الفلسطينيين. فأسرع شاول وسقط على طول[3] إلى الأرض وخاف جدًّا من كلام صموئيل».

١ صموئيل ٢٨: ١٣ - ٢٠

---

(١) الكلام واضح الركاكة، ومبعث ذلك سوء الترجمة، فإن كلمة رفاييم **Rephaim** العبرية قد ترجمت هنا خطأ بكلمة آلهة على حين أنها تعني أشباح الموتى.

(٢) كلمة قريبك (ويقابلها في الإنجليزية **thy neighbour** أي جارك أو صديقك) يقصد بها أي امرئ من اليهود.

(٣) يقصد أنه سقط على الأرض دفعة واحدة دون أن يلتوي أو يلتف حول نفسه على النحو الذي نشهده في المسارح وكذلك دون أن يتقوس، وهي نقطة رأى الكتاب المقدس ضرورة إيضاحها.

ها هي ذي روح صموئيل تقرفه بأنه لم يكن متعطشًا إلى الدماء بالقدر الذي تطيب به نفس يهوه، وتنذره بأن يهوه قد عاقبه على ذلك، بأن قضى بسفك دمه ودماء أولاده وبضياع عرشه وهزيمة جيشه. وهو إنذار خطير معناه أن يهوه المغيار سيقتص من شعبه المختار؛ لما أتاه شاول مسيحه من جريرة الرحمة بأعداء الديار. فالقاعدة عند اليهود -وهم على غير بصر بحكاية يوم القيامة- أن العشيرة كلها تعاقب مع الآثمين من أبنائها أخذًا بمبدأ التضامن في المسؤولية، فيحيق بهم الجدب، أو تفشو بينهم الأوبئة، أو تجتاحهم جيوش الأعداء، أو ما إلى ذلك من البلايا والويلات.

* * *

وتأهب الفلسطينيون لاستئناف الجهاد ومطاردة الغزاة، فبادر داود وعصابته إلى مغادرة ملجئهم في قرية صقلغ؛ ليقاتلوا في صفوف الفلسطينيين، وأعرب داود للملك أخيش عن شدة توقه مقاتلة بني إسرائيل.

«وأحارب أعداء سيدي الملك».

١ صموئيل ٢٩: ٨

لقد أكل اليهودي خبز الوثني، فليضرب إذن بسيفه، ولكن قادة الفلسطينيين لم يرحبوا بهذا العون، أو لعلهم أشفقوا أن تعرض لهؤلاء اللاجئين فرصة فيقلبوا ظهر المجن[1] للذين أطعموهم من جوع

(١) المجن، الترس، قلب مجنه: أسقط الحياء وفعل ما شاء. قلب له ظهر المجن: تغير عليه وساء رأيه فيه.

وآمنوهم من خوف، وينضموا إلى موطنيهم التماسًا لاستئناف حسن الصلة بينهما، ولذا رد الملك أخيش طلب داود شاكرًا.

ورجع داود إلى صقلغ، فإذا العمالقة الذين كان أغار عليهم من هناك واستأصل شأفتهم فلم يستبق منهم رجلًا أو امرأة.

«وصعد داود ورجاله وغزوا الجشوريين والجزريين والعمالقة... وضرب داود الأرض ولم يستبق رجلًا ولا امرأة وأخذ غنمًا وبقرًا وحميرًا وجمالًا وثيابًا ورجع وجاء إلى أخيش».

١ صموئيل ٢٧: ٨-٩

إذا بهم قد غزوا صقلغ وسبوا نساءها.

«وسبيت امرأتا داود أخينوعم اليزرعيلية وأبيجايل امرأة نابال الكرملي».

١ صموئيل ٣٠: ٥

وقد برهن العمالقة على نبالة مشاعرهم وطواعية مروءتهم؛ إذ إنهم:

«لم يقتلوا أحدًا لا صغيرًا ولا كبيرًا بل ساقوهم ومضوا في طريقهم».

١ صموئيل ٣٠: ٢

فلحق بهم داود وظهر عليهم واسترد الغنائم وأطلق السبايا واستعاد امرأتيه.

* * *

ونشبت الحرب عودًا على بدء، وحققت الأقدار الساخرة ما تكهنت به العجوز الساحرة، فظفر الفلسطينيون ببني إسرائيل وأصاب شاول سهم عائر[١] فآثر أن يجهز على نفسه حتى لا يقع بين براثن أعدائه.

«فقال شاول لحامل سلاحه استل سيفه وأطعني به لئلا يأتي هؤلاء الغلف ويطعنوني ويقبحوني. فلم يشأ حامل سلاحه لأنه خاف جدًّا. فأخذ شاول السيف وسقط عليه[٢] ولما رأى حامل سلاحه أنه قد مات شاول سقط هو أيضًا على سيفه ومات معه. فمات شاول وبنوه الثلاثة وحامل سلاحه وجميع رجاله في ذلك اليوم معًا»[٣].

١ صموئيل ٣١: ٤ -٦

ورثا داود بهذه المرثاة شاول ويوناثان ابنه. وقال بأن يتعلم بنو يهوذا نشيد القوس. هو ذا ذلك مكتوب في سفر ياشر.

«الظبي يا إسرائيل مقتول على شوامخك... يا بنات إسرائيل

---

(١) سهم عائر: لا يدري من رمى به.

(٢) سنة البابانيين المعروفة بالهيرا كيري.

(٣) وهناك رواية أخرى عن كيفية مصرع شاول «فقال داود للغلام الذي أخبره كيف عرفت أنه مات شاول ويوناثان ابنه. فقال الغلام الذي أخبره اتفق أني كنت في جبل جلبوع وإذا شاول يتوكأ على رمحه وإذا بالمركبات والفرسان يشدون وراءه، فالتفت إلى ورائه فرآني ودعاني فقلت هأنذا. فقال لي من أنت فقلت له عماليقي أنا. فقال لي قف علي واقتلني لأنه قد اعتراني الدوار لأن كل نفسي بعد في. فوقفت عليه وقتلته لأني علمت أنه لا يعيش بعد سقوطه وأخذت الإكليل الذي على رأسه والسوار الذي على ذراعه وأتيت بهما إلى سيدي ها هنا. فأمسك داود ثيابه ومزقها... فقال له داود كيف لم تخف أن تمد يدك لتهلك مسيح الرب. ثم دعا داود واحدًا من الغلمان وقال تقدم أوقع به. فضربه فمات. فقال له داود دمك على رأسك لأن فمك شهد عليك قائلًا أنا قتلت مسيح الرب».

٢ صموئيل ١: ٥ -١٦

ابكين شاول الذي ألبسكن قرمزًا بالتنعم... قد تضايقت عليك يا أخي يوناثان. كنت حلوًا لي جدًّا. محبتك أعجب من محبة النساء. كيف سقط الجبابرة وبادت آلات الحرب».

٢ صموئيل ١: ١٧ -٢٧

ويموت شاول وثلاثة من بنيه هم يوناثان وأبيناداب وملكيشوع أصبح إيشبوست[١] بن شاول ملكًا على عشرة من أسباط إسرائيل الإثني عشر، وأمر إيشبوست على جيشه رجلًا من قرابته اسمه أبنير، أما داود فقد شخص إلى حبرون وجعل إقامته فيها.

«وأتى رجال يهوذا ومسحوا هناك داود ملكًا على بيت يهوذا».

٢ صموئيل ٢: ٤

* * *

وعقد داود لواء جيشه ليوآب بن صروية.

وبدا لداود أن ينال بالحيلة والسؤال ما عجز عن نيله بالاغتصاب والغلب، فعمد إلى مساومة أبنير في الانضمام إليه، والإيقاع بمليكه وتفتق ذهنه عن علة يعبد بها لأبنير طريق القدوم إلى حبرون، هي أن يطالب برد مطلقته ميكال، فيأتي أبنير معها ليحرسها، وكان له في عودة ميكال مأربة أخرى هي اكتساب مبايعين جدد له بالملك من أولئك الذين كانوا لا يزالون يكنون الولاء لشاول وآل شاول.

كان داود حتى ذلك الوقت قد حظي بسبع زوجات عرفنا منهن

(١) صواب الاسم إيشبعل.

ميكال وأبيجايل وأخينوعم، أما الباقيات فقد زج بأسمائهن -بلا مناسبة- في قصة الحرب بين بيت شاول وبيت داود.

«وكانت الحرب طويلة بين بيت شاول وبيت داود. وكان داود يذهب يتقوى وبيت شاول يذهب يضعف. وولد لداود بنون في حبرون. وكان بكره أمنون من أخينوعم اليزرعيلية. وثانيه كيلآب من أبيجايل امرأة نابال الكرملي. والثالث أبشالوم ابن معكة بنت تلماي ملك جشور[1]. والرابع أدونيا ابن حجيت. والخامس شفطيا ابن أبيطال. والسادس يثرعام من عجلة امرأة داود. هؤلاء ولدوا لداود في حبرون[2]. وكان في وقوع الحرب بين بيت شاول وبيت داود أن أبنير تشدد لأجل بيت شاول».

٢ صموئيل ٣: ١ -٦

وليس فيما تقدم بيان بالأساليب التي «أخذ» بها داود سائر نسائه. لقد استمتع بكل منهن حينًا من الدهر، وها هو ذا يرغب الآن في تلك

---

(١) سبق القول بأن داود كان قد شن الغارة من صقلغ على الجشوريين وأفناهم عن بكرة أبيهم.

(٢) هؤلاء كن زوجاته في حبرون، فلما انتقل إلى أورشليم عظم شأنه.

«وكان داود يتزايد متعظمًا، والرب إله الجنود معه». ٢ صموئيل ٥ -١٠

وقد اقتضاه ذلك أن يستجد من الزوجات والإماء ما يناسب المقام.

«وأخذ داود أيضًا سراري ونساء من أورشليم بعد مجيئه من حبرون فولد أيضًا لداود بنون وبنات. وهذه أسماء الذين ولدوا له في أورشليم. شموع وشوباب وناثان وسليمان وبيجار واليشوع ونافج ويافيع واليشمع واليداع واليفلط».

٢ صموئيل ٥: ١٣ -١٦

إن كلمة «نساء» التي في الآية الكريمة رقم ١٣ تعني غير واحدة. ولسنا ندري هل سليمان المذكور في الآية ١٤ هو سليمان الحكيم أو هو شخص آخر، فإن داود لم يكن قد تزوج بتشبع أم سليمان بعد.

التي مهرها بمئتي قلفة فلسطينية.

لقد كان والدها شاول قد فصم زواج داود بها، عندما هرب هذا منه، وزفَّها إلى من يُدعى فلطيئيل بن لايش، وأحبها الرجل حبًّا جمًّا، ولكن داود لم يبال رغبة الرجل والمرأة كليهما، وأصر على أن يرد زوجته السابقة إليه، فردت إليه وزوجها يذرف الدمع مدرارًا.

«وكان رجلها يسير معها ويبكي وراءها إلى بحوريم فقال له أبنير: اذهب. ارجع. فرجع».

٢ صموئيل ٣: ١٦

لقد زجره القائد العام فانزجر وباعده فتباعد، وما أيسر ما انحسمت صلة الزوجية بينه وبين حليلته.

وطابت نفس أبنير بممالأة داود، إذ كان إبشبوست قد عنف به لأنه فسق بسرية من سراري أبيه شاول، وهو أمر رآه أبنير تافهًا لا يستحق ما أثير حوله من جلبة وصخب.

وتم الاتفاق بين داود وأبنير، إلا أن أبنير لم ينعم بثمن الخيانة، فقد:

«مال به يوآب إلى وسط الباب ليكلمه سرًّا وضربه هناك في بطنه فمات... فقتل يوآب وأبيشاي أخوه أبنير لأنه قتل عسائيل أخاهما في جبعون في الحرب».

٢ صموئيل ٣: ٢٧ - ٣٠

«ولما سمع ابن شاول أن أبنير قد مات في حبرون ارتخت يداه وارتاع جميع إسرائيل. وكان لابن شاول رجلان رئيسا

غزاة اسم الواحد بعنة واسم الآخر ركاب ابنا رمو البئيروتي من بني بنيامين... وسار ابنا رمو البئيروتي ركاب وبعنة ودخلا عند حر النهار إلى بيت إيشبوست وهو نائم نومة الظهيرة. فدخلا إلى وسط البيت ليأخذا حنطة وضرباه في بطنه ثم أفلت ركاب وبعنة آخوه. فعند دخولهما البيت كان هو مضطجعًا على سريره في مخدع نومه فضرباه وقتلاه وقطعا رأسه وأخذا رأسه وسارا في طريق العربة الليل كله. وأتيا برأس إيشبوشت إلى داود إلى حبرون وقالا للملك هو ذا رأس إيشبوشت بن شاول عدوك الذي كان يطلب نفسك. وقد أعطى الرب لسيدي الملك انتقامًا في هذا اليوم من شاول ومن نسله».

٢ صموئيل ٤: ١ -٨

ها هنا مغامران آخران يطلبان ثمن الغدر والخيانة، ولكن داود يأبى هنا أيضًا أن يدفع ثمن البضاعة بعد أن تسلمها وأصبحت في حوزته. وها هي ذي فرصة أخرى تواتيه للظهور في مظهر الكريم النفس الناصع اليدين الذي يشمئز من الدم المسفوك، وإن كان قد سفك لمنفعته، ومن ثم:

«أمر داود الغلمان فقتلوهما وقطعوا أيديهما وأرجلهما وعلقوهما على البركة في حبرون».

٢ صموئيل ٤: ١٢

واستأثر داود بالملك وبايعته أسباط إسرائيل جميعًا.

«وجاء جميع شيوخ إسرائيل إلى الملك إلى حبرون فقطع الملك داود معهم عهدًا في حبرون أمام الرب ومسحوا داود ملكًا على إسرائيل وكان داود ابن ثلاثين سنة حين ملك وملك أربعين سنة في حبرون ملك على يهوذا سبع سنين وستة أشهر. وفي أورشليم ملك ثلاثًا وثلاثين سنة على جميع إسرائيل ويهوذا. وذهب الملك ورجاله إلى أورشليم إلى اليبوسيين سكان الأرض. فكلموا داود قائلين لا تدخل إلى هنا... وأخذ داود حصن صهيون. هي مدينة داود... وأقام داود في الحصن وسماه مدينة داود».

٢ صموئيل ٥: ٣-٩

وانبرى داود يشن الحروب على الشعوب المجاورة، المعادية منها والمسالمة.

«وجاء الفلسطينيون. وانتشروا في وادي الرفائيين[١]. وسأل داود من الرب قائلًا أأصعد إلى الفلسطينيين. أتدفعهم ليدي. فقال الرب لداود اصعد لأني دفعًا[٢] أدفع الفلسطينيين ليدك».

٢ صموئيل ٥: ١٨-١٩

وعاد الفلسطينيون بعد هزيمتهم يتأهبون للقتال، وسأل داود ربه فأخبره يهوه أنه سيتمثل له في صورة الريح، ورسم له الخطة الحربية التي يجب عليه اتباعها.

---

(١) أي في وادي الجبابرة.

(٢) في الترجمة الإنجليزية «بلا ريب» ويبدو أن المترجمين وجدوا أنها كلمة لا يجمل بالله استخدامها.

«فقال لا تصعد بل در من ورائهم وهلم عليهم مقابل أشجار البكا[1]. وعندما تسمع صوت خطوات في رؤوس أشجار البكا. حينئذ احترص لأنه إذ ذاك يخرج الرب أمامك لضرب محلة الفلسطينيين».

٢ صموئيل ٥: ٢٤

* * *

وعنّ لداود أن يقر تابوت الرب في مدينة داود، وكان الفلسطينيون -كما أسلفنا- قد غنموه أيام «عالي» في إحدى حملاتهم المظفرة.

«وسقط من إسرائيل ثلاثون ألف راجل وأخذ تابوت الله».

١ صموئيل ٤: ١٠ -١١

ولقي الفلسطينيون يهوه، الطاعن في السن، بالتجلة وأنزلوه في هيكل إلههم داجون، وهو صنم نصفه الأعلى في صورة بشرية ونصفه الأسفل مكانه نصف سمكة، بيد أنه لا يتفق اثنان من مهنة واحدة. وكان يهوه يبدو في النهار كريم الخلق، ولكنه ما يجنه الليل حتى يحمل على داجون، وهو بلا ساقين يقف بهما، ويبطحه أرضًا فيسقط داجون على وجهه أمام تابوت الرب.

«إذا بداجون ساقط على وجهه على الأرض أمام تابوت ورأس داجون ويداه مقطوعة على العتبة. بقي بدن السمكة فقط».

١ صموئيل ٥: ٤

(١) يقصد أشجار التوت.

ثم يزحف يهوه إلى صندوق ويخلد فيه إلى الهدوء، فإذا جاء القوم في الصباح ألفوا على وجهه ابتسامة الطيبة والطهر وسذاجة الأطفال.

ولم يكتف يهوه بذلك، بل أتبع هذا الاستهلال بالأوبئة تفشو بين الفلسطينيين، وبالفيران تعيث في زروعهم، وضرب أهالي أشدود وجت وعقرون بداء البواسير، وهي ضربات قذرة تذكرنا بضرباته العشر للمصريين، فضاق أهل البلاد بالتابوت المشؤوم واحتشد كهنتهم وعرافوهم يتذاكرون في الأمر، فأجمعوا رأيهم أن يعيدوا التابوت إلى إسرائيل مصحوبًا بتماثيل ذات قوة سحرية تميط عنهم تلك الأوبئة، فأعادوه محمولًا على مركبة تجرها الثيران، تحف به.

«خمسة بواسير من ذهب وخمسة فيران من ذهب»[1].

١ صموئيل ٦: ٤

وانطلقت المركبة التي تقل التابوت إلى ربوع بني إسرائيل، فاجتازت تخومهم وعرجت على بلدة بيتشمس. واشرأب أهل البلدة إلى التابوت مطروفة عيونهم به[2]، وعج[3] الحصادون وهرعوا إلى المركبة يصلحون من شأنها ويزيلون العراقيل من طريقها. ولم يأبه الإله المستكن في التابوت لما يضمره له القوم وما يبدونه نحوه من إخلاص وولاء، بل استولت عليه الكبرياء واشتد به الحنق لجراءتهم

(١) وبما أن أظهر صفات الله هي أنه غير متغير، فمن واجب الناس إذا ما أغار الجراد على زروعهم، أو أقبل بعوض الملاريا يلسعهم، أو أحاط بهم ذباب مرض النوم، أو فشا في رؤوسهم وثيابهم القمل حاملًا جراثيم التيفوس أن يصنعوا تماثيل ذهبية لهذه الحشرات.

(٢) هو مطروف العين به، لا ينظر إلا إليه.

(٣) عج الرجل: صاح ورفع صوته.

عليه وانتهاكهم حرمته، فهو محرم لمسه أو رؤيته على الناس قاطبة ما خلا الكهنة من سدنته ومن إليهم، فمن انتهك التابوت الخاص به من غير هؤلاء فقد أتى أمرًا نكرًا حق عليه الموت الزؤام[1].

«وضرب أهل بيتشمس لأنهم نظروا إلى تابوت الرب. وضرب من الشعب خمسين ألف رجل وسبعين رجلًا. فناح الشعب لأن الرب ضرب الشعب ضربة عظيمة».

١ صموئيل ٦: ١٩

وكان أهل بيتشمس قد أرسلوا إلى أهل قريته يعاريم.

«فجاء أهل قرية يعاريم وأصعدوا تابوت الرب وأدخلوه إلى بيت أبيناداب في الأكمة وقدسوا ألعازار ابنه لأجل حراسة تابوت الرب. وكان من يوم جلوس التابوت في قرية يعاريم أن المدة طالت وكانت عشرين سنة».

١ صموئيل ٧: ١ -٢

وأخلد ساكن التابوت إلى الهدوء طوال تلك المدة حتى خطر أمره ببال داود وعن له أن يأتي بقفص الأسد الجوال هذا إلى مدينة داود، فشخص إلى هناك ومعه نحو ثلاثين ألفًا وأركبوا التابوت مركبة جديدة يسوقها عزة بن أبيناداب.

«ولما انتهوا إلى بيدر فاخون مد عزة يده إلى تابوت الله وأمسكه لأن الثيران انشمصت -فحمى غضب الرب على

(١) الزؤام من الموت: الكريه، وقيل المجهز أي السريع.

عزة وضربه الله هناك لأجل غفله فمات هناك لدى تابوت الله فاغتاظ داود».

٢ صموئيل ٦: ٦ -٨

وأوقعت هذه الحادثة الرعب في قلب داود، فلم يسر بالتابوت إلى مدينته.

«بل مال به إلى بيت عوبيد أدوم الجتي». ١ أخبار الأيام ١٣: ١٣

وبذل الجتي ما وسعه من جهد في التنكب عن رؤية التابوت؛ حتى لا يستبين تفاهته، ويكتشف تبعًا لذلك خداع الكهنة، وقد سرّ الكهنة بتجرده من الفضول. ومكث التابوت في بيته ثلاثة أشهر دون أن يمس هو بأذى، مما جعل الشجاعة تواتي داود، فأقدم على نقل التابوت إلى حاضرة ملكه يحف به حفل راقص.

«وكان داود يرقص بكل قوته أمام الرب وكان داود متمنطقًا بأفود من كتان».

٢ صموئيل ١٦ -١٤

وأبصرته زوجته ميكال ابنة شاول وهو يرقص وقد نضى عنه[١] أكثر ثيابه، فأنكرت منه ذلك ووبخته على مسلكه، وقالت له.

«ما كان أكرم ملك إسرائيل اليوم حيث تكشف[٢] اليوم في

(١) نضى ثوبه عنه: خلعه.

(٢) كلمة «يتكشف» تفيد معنى «يبدو»، ولكن الكلمة الصائبة هنا هي «يتعرى» أو يعري جسده وبذلك تكون الترجمة الصحيحة للجملة هي:
وهو يعري اليوم نفسه على أعين خادمات غلمانه كما يعري أحد الأوباش نفسه في غير حياء.

أعين إماء عبيده كما يتكشف أحد السفهاء».

٢ صموئيل ٦: ٢٠

فرد على امرأته بحديث كحديث المخمورين، قال لها فيه إنه يستطيع أن يبعد في النذالة ما شاء، وليس لكائن كان أن ينكر منه ما يفعل. ثم إنه أوقع بها عقوبة غاية في البشاعة.

«فقال داود لميكال إنما أمام الرب الذي اختارني دون أبيك ودون كل بيته ليقيمني رئيسًا على شعب الرب إسرائيل. فلعبت أمام الرب... ولم[1] يكن لميكال بنت شاول ولد إلى يوم موتها».

٢ صموئيل ٦: ٢١ -٢٣

وتابع داود غزواته وانتصاراته، وهي تلك التي يريد الكهنة إبرازها في صورة تبذ انتصارات شاول. وكان داود يقترف خلال حروبه من الفظائع ما لم يسمع بمثله.

«وبعد ذلك ضرب داود الفلسطينيين وذللهم... وضرب الموآبيين وقاسهم بالحبل. أضجعهم على الأرض فقاس

(١) هنا في الترجمة العربية تحريف خطير تبدو معه الآية الأخيرة مبتوتة الصلة بما قبلها. ويستبين لنا الصواب عندما نراجع الترجمة الإنجليزية وهي تقول ما ترجمته في الجملة الأخيرة:
ولهذا لم يكن لميكال بنت شاول ولد إلى يوم موتها وقد أغفل الذين نقلوا هذا السفر إلى العربية ترجمة الكلمة التي تقابلها «ولهذا» وهي التي تجعل معنى الجملة يبدو واضحًا، وهو أن سخط داود على امرأته قد ترتب عليه حرمانها الولد إلى غاية العمر، فقد حكم عليها بالعقم الأبدي إذ هجرها في المضجع وخلفها منبوذة لا تذوق لذة الزوجية ومتعة الأمومة وقد أخطأ صاحب السفر إذ كتب بعد ذلك:
«وبنى ميكال ابنة شاول الخمسة الذين ولدتهم لعدريئيل ابن برزلاي المحولي وسلمهم إلى الجبعونيين فصلبوهم على الجبل أمام الرب».
٢ صموئيل ٢١: ٨ -٩

بحبلين للقتل وبحبل كامل للاستحياء. وصار الموآبيون عبيدًا لداود يقدمون هدايا».

وضرب داود هدد عزر بن رحوب ملك صوبة ليرد سلطته عند نهر الفرات[1]. فأخذ داود منه ألفًا وسبع مئة فارس وعشرين ألف راجل. وعرقب داود جميع خيل المركبات وأبقى منها مئة مركبة. فجاء أرام دمشق لنجدة هدد عزر ملك صوبة فضرب داود من أرام اثنين وعشرين ألف رجل».

٢ صموئيل ٨: ١ -٥

وأرسل داود قائده يوآب على بني عمون[2] فدحرهم واستولى على حاضرة ملكهم، ثم قدم داود إلى تلك الحاضرة.

«وأخرج الشعب الذي فيها ووضعهم تحت مناشير ونوارج وحديد وفؤوس حديد وأمرهم في أتون الآجر وهكذا صنع بجميع مدن بني عمون».

٢ صموئيل ١٢: ٣١

* * *

(١) لم نسمع قبل أن سلطان داود امتد إلى ضفاف الفرات، وكل ما في الأمر أن أبرام رأى مرة فيما يراه النائم أن الرب قال له:

«لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات».

تكوين ١٥: ١٨

(٢) طالت مقاومة الموآبيين والعمونيين لبني إسرائيل؛ ولذا عمد صاحب سفر التكوين إلى وصم هاتين القبيلتين بأنهما أولاد زنية.

«فحبلت ابنتا لوط من أبيهما، فولدت البكر ابنًا ودعت اسمه موآب. وهو أبو الموآبيين إلى اليوم. الصغيرة أيضًا ولدت ابنًا ودعت اسمه بن عمي. وهو أبو بني عمون إلى اليوم».

تكوين ١٩: ٣٦ -٣٨

وصعد داود في إحدى الأمسيات إلى سطح قصره وقد صفا باله ورق مزاجه، فجعل يسرح بصره في بيوت الرعية ويضرب بطرفه يمنة ويسرة، فآنس عن كثب منه امرأة تغتسل في بيتها، فأحد النظر إليها، فإذا هي شابة ممشوقة[١] أسرى منظرها الدم ساخنًا في شرايينه، فأرسل يستقدم بعض خبرائه ليسألهم: من تكون تلك الغانية؟

«فأرسل داود وسأل عن المرأة فقال واحد. أليست هذه بتشبع بنت أليعام امرأة أوريا الحثي».

٢ صموئيل ١١: ٣

لم يُضِع نبي الله لحظة من وقته الثمين في التودد إلى تلك التي شهقت إليها نفسه، ولم ير أن يجلس إليها ساعة في ضوء القمر يبثها لواعج[٢] حبه وهيامه، بل بادر بإرسال زبانيته[٣] يجلبونها إليه، كأنما هي بغي محترفة، وما لبث أن مال بها إلى مخدعه ليطفئ فيها لظى شبقه، فلما قضى منها وطرًا أعادها إلى بيتها في سهولة ويسر.

«فأرسل داود رسلًا وأخذها فدخلت إليه فاضطجع معها وهي مطهرة من طمثها، ثم رجعت إلى بيتها».

٢ صموئيل ١١: ٤

وقد أعقب هذا النزاء[٤] حملاً كما هو المألوف في الاتصالات

(١) جارية ممشوقة: أي حسنة القوام قليلة اللحم.

(٢) لعج الشيء في الصدر: خلج. لعج الحب والحزن فؤاده: استحر في القلب.

(٣) ذبنه: دفعه، الزبانية: عند العرب الشرط وسُمِّي بذلك بعض الملائكة لدفعهم أهل النار إليها واحدها زِبْنِيٌّ.

(٤) نزا: وثب.

الجنسية المحرمة. وماذا عسى أن يتوقع داود غير هذا؟ إنه لم يدر بخلده أن يصطنع وسيلة تعصمها من الحمل مثلما صنع أونان[1] بن يهوذا بن يعقوب. وألفت المرأة نفسها في حرج لأنها حملت وزوجها بمنأى عنها في حومة القتال، فلاذت بوالد الجنين الذي بدأ يضطرب في أحشائها حتى يتدبر عقبى نزوته. ولم يجد داود في الأمر عوصًا. فأرسل يستدعي الزوج المثلوم العرض من المعركة، حتى إذا ما مثل بين يديه جعل الملك يتحدث إليه في أمور لا طائل تحتها ثم طلب إليه أن يتوجه إلى بيته وأهل بيته.

«وقال داود لأوريا انزل إلى بيتك واغسل رجليك فخرج أوريا من بيت الملك وخرجت وراءه حصة من عند الملك[2]. ونام أوريا على باب بيت الملك مع جميع عبيد سيده ولم ينزل إلى بيته. فأخبروا داود قائلين لم ينزل أوريا إلى بيته. فقال داود لأوريا أما جئت من السفر. فلماذا لم تنزل إلى بيتك. فقال أوريا لداود إن التابوت وإسرائيل ويهوذا ساكنون في الخيام وسيدي يوآب وعبيد سيدي نازلون على وجه الصحراء وأنا آتى إلى بيتي لآكل وأشرب وأضطجع مع امرأتي. وحياتك

(١) «فقال يهوذا لأونان ادخل على امرأة أخيك وتزوج بها وأقم نسلاً لأخيك. فعلم أونان أن النسل لا يكون له. فكان إذا دخل على امرأة أخيه أنه أفسد على الأرض لكيلا يعطي نسلًا لأخيه».
تكوين ٣٨ -٨ -٩

(٢) حصة من ماذا؟ في الأصل أنها حصة من اللحم لعل الملك كان يسخر من الزوج المثلوم العرض بإرسالها إليه.

وحيوة نفسك لا أفعل هذا الأمر»[1].

٢ صموئيل ١١: ٨-١١

لقد عز عليه أن ينعم بالعطلة الممنوحة له وأن يستمتع بمؤانسة زوجته الفاتنة وأبدى من الغيرة على قوميته والحماسة في الذياد عن عقيدته، والاستمساك بشعائر الجندية والوفاء لإخوانه في الكفاح ما يستحق من أجله مدلاة من مدليات الشرف، فما هي المدلاة التي حباه بها النبي الملك؟ إنها الموت. فما أعظم شهامة هذا المسيح الذي «انتخبه الرب لنفسه حسب قلبه».

«فقال داود لأوريا أقم هنا اليوم أيضًا وغدًا أطلقك... ودعاه داود فأكل وشرب وأسكره... وفي الصباح كتب داود مكتوبًا إلى يوآب وأرسله بيد أوريا. وكتب في المكتوب يقول اجعلوا أوريا في وجه الحرب الشديدة وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت».

٢ صموئيل ١١: ١٤-١٥

هل سمعت بمثل هذا؟ لقد كان في وسع داود أن يبرد[2] بريده إلى يوآب مع من شاء من عماله، ولكن نفسه لم تطب بأن تدع أحدًا يحمل

(١) كان العبريون -كما كان غيرهم من الشعوب البدائية القديمة وكما هي حال بعض الشعوب البدائية في الوقت الراهن- يعتقدون أنه إذا باضع الرجل امرأته والحرب فاشية زايلته المقدرة على الظفر بعدوه، فإذا أصيب هو بجرح أودي الجرح بحياته، ومن ثم أصبحت زوجات المحاربين «تابو» يحرم على بعولتهن معاشرتهن قبل أن تنطفئ نائرة الحرب. وهذا التابو هو الذي عصم أوريا من امتثال ما رسمه له داود من غشيان أهله.

(٢) أبرد إليه البريد: أرسله.

أمر القتل غير المحكوم عليه بالقتل نفسه. لقد لذ له أن يعبث بفريسته ويسخر من الرجل هذه السخرية الرهيبة قبل أن يفتك به كما يصنع القط بالفأر، فجعله أكيله ونديمه في الليل وأطاح برأسه في الصباح.

«فلما سمعت امرأة أوريا أنه قد مات أوريا رجلها ندبت بعلها. ولما مضت المناحة أرسل داود وضمها إلى بيته وصارت له امرأة وولدت له ابنًا».

٢ صموئيل ١١: ٢٦ -٢٧

لقد سلك داود هذه المرة مسلك المهذبين فصبر على حبيبته حتى قامت بمراسيم النوح على بعلها ثم أدرجها في «الحريم»، ولعل هذه الأناة إنما ترجع إلى أنه كان قد خبر فنونها وتذوق مفاتنها قبل، أو لعل الفضل عائد إلى المرأة نفسها إذ كان لديها من الحكمة والرزانة ما يوقيها أن تتعجل الأمور وتضرب بالتقاليد عرض الحائط كما فعلت أبيجايل، فأرجأت الزواج بمغتال زوجها بعض الوقت حتى يبرد دمه، ومهما يكن من أمر، فقد سارت الأمور على هوى بتشبع، وظفرت الأرملة الطروب بتحقيق ما تهوى.

* * *

وجاء ناثان الكاهن إلى داود بإذن الله، تحفزه -على الأرجح- أحقاد خاصة ورغبته في بسط سلطان رجال الكهنوت على الملك، وقص عليه قصة رمزية قال فيها.

«كان رجلان في مدينة واحدة واحد منهما غني والآخر فقير. وكان للغني غنم وبقر كثيرة جدًّا. وأما الفقير فلم يكن له

شيء إلا نعجة واحدة صغيرة قد اقتناها ورباها وكبرت معه ومع بنيه جميعًا. تأكل من لقمته وتشرب من كأسه وتنام في حضنه وكانت له كابنة. فجاء ضيف إلى الرجل الغني فعفا أن يأخذ من غنمه ومن بقره ليهيئ للضيف الذي جاء إليه فأخذ نعجة الرجل الفقير وهيأ للرجل الذي جاء إليه. فحمى غضب داود على الرجل جدًّا وقال لناثان حي هو الرب إنه يقتل الرجل الفاعل ذلك ويرد النعجة أربعة أضعاف لأنه فعل هذا الأمر ولأنه لم يشفق فقال ناثان لداود أنت هو الرجل. هكذا قال الرب إله إسرائيل. أنا مسحتك ملكًا على إسرائيل وأنقذتك من يد شاول وأعطيتك بيت سيدك ونساء سيدك في حضنك وأعطيتك بيت إسرائيل ويهوذا وإن كان ذلك قليلًا كنت أزيد لك كذا وكذا. لماذا احتقرت كلام الرب لتعمل الشر في عينيه قد قتلت أوريا الحثي بالسيف وأخذت امرأته لك امرأة وإياه قتلت بسيف بني عمون... هكذا قال الرب هأنذا أقيم عليك الشر من بيتك وآخذ نساءك أمام عينيك وأعطيهن لقريبك فيضطجع مع نسائك في عين هذه الشمس. لأنك أنت فعلت بالسر وأفعل هذا الأمر قدام جميع إسرائيل وقدام الشمس».

٢ صموئيل ١٢: ١ -١٢

لقد استخفت القصة الرمزية داود، فقضى بقتل الجاني، فلما علم بأن «الجاني» إنما يرمز إليه هو، نكص على عقبه كما فعل يهوذا بن

يعقوب إذ حكم بحرق أرملة ابنه لأنها حملت من سفاح، حتى إذا ما علم أنه هو الذي فعل بها ذلك نقض حكمه[1].

هذا ويلاحظ:

١- أن هذا النبي الجديد يرى النساء يتشابهن جميعًا كما تتشابه النعاج، وأنه لم يزر على الملك اغتصابه زوجة الرجل الذي يقاتل في سبيل وطنه واقترافه بذلك خطيئة الزنا وانتهاكه حرمة الوصية السابعة من الوصايا العشر، بل نعى عليه استهتاره باغتصاب النساء، حتى إنه لم يعف عن الزوجة الوحيدة التي لأوريا على وفرة ما في حوزته هو منهن، ولو أنه كان عزبًا أو ذا زوجة واحدة لانتفي الذنب أو هان، ولما كان لهذه القصة الرمزية معنى على الإطلاق.

٢- أن كلمة «كذا وكذا» لا يمكن أن تكون هي مقول القول، ولكنها إشارة موجزة إلى ما يمكن أن يكون قد قيل في هذا المقام.

٣- أن داود لم يصنع ما صنع بزوجات نابال وأوريا ومن على شاكلتهما في السر، بل على مرأى ومسمع من كثيرين.

٤- أن الآية الحادية عشرة تهدد داود بالانتقام منه في أشخاص نساء الأسرة -وهن بريئات- فهي تقضي بأن ينكبن في أعراضهن، ويسمن أبشع الإذلال في رائعة النهار، وكأنه لا وزن لأشخاصهن ولا عبر بآلامهن.

---

(١) راجع، تكوين ٣٨: ٢٤-٢٦.

٥- وقد اعترف داود لناثان بإثمه، كما يعترف الكاثوليكي للقس، وغفر ناثان لداود ذنبه، كما يغفر القس للكاثوليكي.

«فقال داود لناثان قد أخطأت إلى الرب. فقال ناثان لداود. الرب أيضًا قد نقل عنك خطيتك. لا تموت. غير أنه من أجل أنك قد جعلت بهذا الأمر أعداء الرب يشمتون فالابن المولود لك يموت».

٢ صموئيل ١٢: ١٣ -١٤

اعتراف ملكي موجز، وغفران نبوي سهل، وإنذار منتهك للعدالة يطمئن داود على حياته ولا يفجعه في شيء من ذات نفسه، كتنحيته عن سرير الملك أو سلبه ثوب الصحة والعافية، ولكنه يتصل بالنساء والأطفال، وما أحقر النساء وأكثر الأطفال في ذلك الزمان والمكان وأنفذ يهوه عقابه الفريد.

١- فأمات ابن داود وثمرة نزوته حتى لا يكون هو سليمان الحكيم الذي يرث منه عرش المملكة، ويبني بيت الله ويصبح جدًّا ليسوع المسيح.

«فقال داود لعبيده هل مات الولد. فقالوا مات».

٢ صموئيل ١٢: ٩

لم يقتل الله الجاني، بل قتل المجني عليه، تلك هي سنة الكتاب المقدس. لقد عوقب داود في شخص ابنه الوليد، كما عوقب حام في

شخص ابنه البريء كنعان[1] وكما عوقب سليمان في شخص ولده[2].

«وعزى داود بتشبع امرأته ودخل إليها واضطجع معها فولدت ابنًا فدعا اسمه سليمان والرب أحبه[3]. وأرسل بيد ناثان النبي ودعا اسمه يديديا من أجل الرب».

٢ صموئيل ١٢: ٢٤ -٢٥

وتجللت ثامار ابنة داود بالخزي والشنار.

فلقد رزق داود من امرأته معكة بنت تلماي ملك جشور بفتى ذي بهاء ودهاء لم يشهد بنو إسرائيل من يعدله ملاحة وجه وجمال شعر، أسماه أبشالوم.

«ولم يكن في كل إسرائيل رجل جميل وممدوح جدًّا كأبشالوم من باطن قدمه حتى هامته لم يكن فيه عيب».

٢ صموئيل ١٤: ٢٥

---

(١) «فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه وأخبر أخويه خارجًا... فلما استيقظ نوح من خمره وعلم ما فعل به ابنه الصغير، فقال ملعون كنعان. عبد العبيد يكون لإخوته».

تكوين ٩: ٢٢ -٢٥

(٢) وأحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون موآبيات وعمونيات وأدوميات وصيدونيات وحثيات، من الأمم الذين قال عنهم الرب لبني إسرائيل لا تدخلون إليهم وهم لا يدخلون إليكم لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم. فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة، وكانت له سبعمائة من النساء السيدات وثلاثمائة من السراري فأمالت نساؤه قلبه... حينئذ بنى سليمان مرتفعة لكموش رجس الموآبيين على الجبل الذي تجاه أورشليم ولمولك رجس بني عمون... فقال الرب لسليمان من أجل أن ذلك عندك ولم تحفظ عهدي وفرائضي التي أوصيتك بها فإني أمزق المملكة عنك تمزيقًا وأعطيها لعبدك. إلا أني لا أفعل ذلك في أيامك من أجل داود أبيك بل من يد ابنك أمزقها».

١ ملوك ١١: ١ -١٢

(٣) أحبه الرب لأنه بني له (أي للكهنة) بيتًا، وبميلاد سليمان أصبحت بتشبع جدة ليسوع المسيح.

كما رزق منها بابنة حسناء تبذ شقيقها جمالًا وفتنة، أسماها ثامار. وكان له ابن من زوجة أخرى اسمه أمنون. وجعل أمنون يطيل النظر إلى أخته مأخوذًا بجمالها فاشتهاها وود أن يقضي منها وطرًا، ولكن ذهنه الكليل لم يساعفه بخطة تنيله مأربه، فأسقمته الحيرة واشتد به التردد، فرسم له أحد أصدقائه خطة ماكرة يتحيل بها.

«فقال يوناداب اضطجع على سريرك وتمارض. وإذا جاء أبوك ليراك فقل له دع ثامار أختي فتأتي وتطعمني خبزًا وتعمل أمامي الطعام لأرى فآكل من يدها».

٢ صموئيل ١٣: ٣-٥

ذلك هو ما أشار به ابن العم الموفور الحكمة، وهو نموذج لما تتحلى به الأسرة كلها من مكارم الأخلاق. وقد اتبع ابن الملك هذه النصيحة الحصيفة فأوبقته.

من الناس من يبذل حياته في حماية أخته، ومنهم من يرعوى عن التغرير بإخوات غيره حين يتذكر أن له أختًا لا يرضى لها أن يغرر بها، ولكن ابن داود جاء على غرار أبيه، متى احتدمت الشهوة بين جوانحه تخطى إلى إشباعها جميع العراقيل، ضاربًا بجميع الحوائل عرض الحائط، ولم يكن لشيء عنده حرمة لا تنتهك.

«وقال أمنون أخرجوا كل إنسان عني. فخرج كل إنسان عنه. ثم قال أمنون لثامار إيتي بالطعام إلى المخدع فآكل من يدك. فأخذت ثامار الكعك الذي عملته وأتت به أمنون أخوها إلى المخدع. وقدمت له ليأكل فأمسكها وقال لها

تعالى اضطجعي معي يا أختي. فقالت له لا يا أخي لا تذلني لأنه لا يفعل هكذا في إسرائيل. لا تعمل هذه القباحة. أما أنا فأين أذهب بعاري، وأما أنت فتكون كواحد من السفهاء في إسرائيل. والآن كلم الملك لأنه لا يمنعني منك[1] فلم يشأ أن يسمع لصوتها بل تمكن منها وقهرها واضطجع معها[2]».

٢ صموئيل ١٣: ٩ -١٤

لقد أنكر حرمة الأخوة وسلك مع أخته -بمرأى من خادمه- مسلكًا ما كان يستطيع أن يسلك شرًّا منه. وقد فقدت هي أخاها حين جعل من نفسه عشيقًا لها ترق في حضنه، ثم ما لبثت أن رزئت بفقد العشيق أيضًا، فإنه ما كاد ينال منها غايته حتى يرم بها ومجتها نفسه.

---

(١) كان يهوه فيما مضى يجيز أن يتزوج الأخ أخته التي ليست بشقيقته. وقد تزوج إبراهيم أخته (أو -إن شئت- نصف أخته) سارة.

«وبالحقيقة أيضًا هي أختي ابنة أبي. غير أنها ليست ابنة أمي. فصارت لي زوجة».

تكوين ٢٠: ١٢

ولكن موسى حظر مثل هذه الزوجية في بيان مفصل لا يحتمل لبسًا.

«عورة أختك بنت أبيك أو بنت أمك المولودة في البيت أو المولودة خارجًا لا تكشف عورتها... عورة بنت امرأة أبيك المولودة من أبيك لا تكشف عورتها. إنها أختك... كل من عمل شيئًا من جميع هذه الرجاسات تقطع الأنفس التي تعملها من شعبها».

لاويون ١٨: ٩ -٢٩

ثم أعاد ذلك موكدًا ومشددًا في العقوبة.

«وإذ أخذ رجل أخته بنت أبيه أو بنت أمه ورأى عورتها ورأت هي عورته فذلك عار. يقطعان أمام أعين بني شعبهما. وقد كشف عورة أخته، يحمل ذنبه».

لاويون ٢٠: ١٧

(٢) الترجمة الصائبة هي: وبما أنه كان أقوى منها، فقد قهرها واضطجع معها.

«ثم أبغضها أمنون بغضة شديدة جدًّا حتى إن البغضة التي أبغضها إياها كانت أشد من المحبة التي أحبها إياها. وقال لها أمنون قومي انطلقي. فقالت له لا سبب. هذا الشر بطردك إياي هو أعظم من الآخر. الذي عملته بي. فلم يشأ أن يسمع لها بل دعا غلامه الذي كان يخدمه وقال له اطرد هذه[1] عني خارجًا وأقفل الباب وراءها. وكان عليها ثوب ملون لأن بنات الملك العذارى كن يلبسن جبات مثل هذه. فأخرجها خادمه إلى الخارج وأقفل الباب وراءها. فجعلت ثامار رمادًا على رأسها ومزقت الثوب الملون الذي عليها ووضعت يدها على رأسها وكانت تذهب صارخة. فقال لها أبشالوم أخوها. هل كان أمنون أخوك معك. فالآن يا أختي اسكتي. أخوك هو. لا تضعي قلبك على هذا الأمر. فأقامت ثامار مستوحشة في بيت أبشالوم أخيها. ولما سمع الملك داود بجميع هذه الأمور اغتاظ جدًّا. ولم يكلم أبشالوم أمنون. بشر ولا بخير لأن أبشالوم أبغض أمنون من أجل أنه أذل ثامار أخته».

٢ صموئيل ١٣: ١٥ -٢٢

وانصرمت بعد هذه الفضيحة المدوية سنتان نسى الواتر فيها جريمته، ولكن الموتور لم ينس ثأره. ودعا أبشالوم لفيفًا من إخوته وأقربائه إلى مأدبة أقامها لهم في إحدى ضياعه، وذهب إليه أمنون فيمن

(١) الترجمة الصحيحة لهذه الجملة هي: والآن هلم نح (أومط) عني هذه المرأة.

ذهب، غير متعظ بما أصاب آل شكيم[1] من أجداده بني إسرائيل[2]، فوثب عليه غلمان أخيه وفتكوا به.

«فقام جميع بني الملك وركبوا كل واحد على بغلة وهربوا... ورفعوا أصواتهم وبكوا وكذلك بكى الملك وعبيده بكاء عظيمًا جدًّا. فهرب أبشالوم وذهب إلى تلماي بن عميهود ملك جشور. وناح داود على ابنه الأيام كلها. وهرب أبشالوم وذهب إلى جشور وكان هناك ثلاث سنين».

٢ صموئيل ١٣: ٢٩ -٣٨

ولما سكت الغضب عن داود تشفع بوآب إليه في أبشالوم، فعفا عنه الملك، وفسح له في القدوم إلى حاضرة الملك، بيد أنه أبى أن يستقبله

---

(١) هي الرقعة التي فيها الآن مدينة نابلس.

(٢) كان يعقوب (إسرائيل) قد قدم من قدان آرام وحط رحاله أمام مدينة شكيم في أرض كنعان وابتاع حقلًا هناك. وشاهد شكيم بن حمور الحوى رئيس الأرض دينة ابنة يعقوب من ليئة فأحبها ونال منها بغيته، ثم ذهب أبوه إلى يعقوب يخطبها له، فوافق يعقوب وبنوه على أن يزفوها إلى الغلام بشرط أن يختتن هو وأهل البلدة جميعًا.

«ولم يتأخر الغلام أن يفعل الأمر لأنه كان مسرورًا بابنة يعقوب».

تكوين ٣٤: ١٩

واختتن أهل المدينة كذلك وصفت قلوبهم من ناحية بني إسرائيل الذين حلوا بساحتهم، وطابت نفوسهم أن يندمج القوم فيهم.

«فحدث في اليوم الثالث... أن ابني يعقوب شمعون ولاوى أخوي دينة أخذ كل واحد سيفه وأتيا على المدينة بأمن وقتلا كل ذكر. وقتلا حمور وشكيم ابنه بحد السيف. وأخذا دينة من بيت شكيم وخرجا. ثم أتى بنو يعقوب على القتلى ونهبوا المدينة لأنهم نجسوا أختهم. غنمهم وبقرهم وحميرهم وكل ما في المدينة وما في الحقل أخذوه، وسبوا ونهبوا كل ثروتهم وكل أطفالهم ونسائهم وكل ما في البيوت».

تكوين ٣٤: ٢٥ -٢٩

ثم ذهب إسرائيل وبنو إسرائيل بغنيمتهم إلى بيت إيل وأقاموا بها مذبحًا لله.

طوال سنتين، وشق ذلك على أبشالوم وداخلته الريبة بيوآب وهمس في صدره أنه هو الذي يحول بينه وبين وجه أبيه، فأمر بعض عبدانه أن يحرقوا حقل شعير ليوآب.

وفصل أبشالوم إلى حبرون وأوطن بها، وجعل يتألف الناس هناك ويؤلبهم على أبيه، فائتلفوا حوله ومالئوه عليه، ولا غرو في ذلك فقد كان أبشالوم جميلًا مفرط الجمال يزدان رأسه بشعر غزير مرسل يزن ستة أرطال ونصف رطل.

«ولم يكن في كل إسرائيل رجل جميل ممدوح جدًّا كأبشالوم ومن باطن قدمه حتى هامته لم يكن فيه عيب. وعند حلقه رأسه إذ كان يحلقه في آخر كل سنة لأنه كان يثقل عليه فيحلقه كان يزن شعر رأسه مئتى شاقل بوزن الملك.

٢ صموئيل ١٤: ٢٥ -٢٦

لقد كان الجمال سبيل شاول إلى العرش، وكان من وسائل داود إلى انتزاع صولجان الملك من يد شاول. وقد بذهما أبشالوم في مضمار الجمال، فهفت إليه أفئدة القوم ولم يتوانوا عن مبايعته على الملك مكان أبيه.

وتناهت أخبار الفتنة إلى مسيح الرب، وعرف أنه لا قبل له بالمتذمرين منه والمتمردين عليه، وسرى الرعب في أوصاله عندما تذكر ما كان يمارسه هو من أعمال القساوة والضراوة، وما يأتيه من ضروب التنكيل بالمهزومين من خصومه وأعدائه، وعلم أن ابنه ناهج نهجه ولن يكون أعف منه، فأيقن أن السلامة في الهرب.

«فقال داود لجميع عبيده الذين معه في أورشليم قوموا بنا نهرب لأنه ليس لنا نجاة من وجه أبشالوم. أسرعوا للذهاب لئلا يبادر ويدركنا وينزل بنا الشر ويضرب المدينة بحد السيف».

٢ صموئيل ١٤: ١٤

«وأما داود فصعد في مصعد جبل الزيتون. كان يصعد باكيًا ورأسه مغطى ويمشي حافيًا وجميع الشعب الذين معه غطوا كل واحد رأسه وكانوا يصعدون وهم يبكون».

٢ صموئيل ١٥: ٣٠

وهمَّ صادوق وأبياثار الكاهنان وحوشاي الأركي بالانضمام إلى ركبه، لولا أنه أوعز إليهم أن يعودوا إلى جوار أبشالوم ليفسدوا عليه رأيه ويبطلوا مشورة أصحابه.

ونصح أخيتوفل لأبشالوم أن يصطنع الحزم، ويبدي قوة الحزم، ويسلك مسلكًا يقنع الخائفين والمترددين بأنه قد أحرق سفنه وراءه وقطع كل صلة له بأبيه، واختار له أخيتوفل أن يدخل على سراري أبيه ويستبيحهن لنفسه في وضح النهار.

«فنصبوا لأبشالوم الخيمة على السطح ودخل أبشالوم إلى سراري أبيه أمام جميع إسرائيل»[1].

٢ صموئيل ١٦: ٢٢

(١) وقد جنى عليهن بذلك جناية كبيرة، فقد باعهن داود عند رجوعه إلى أورشليم وحبسهن حتى الممات. «وأخذ الملك النساء والسراري العشر اللواتي تركهن لحفظ البيت وجعلهن تحت حجز وكان يعولهن ولكن لم يدخل إليهن بل كن محبوسات إلى يوم موتهن في عيشة العزوبة».

٢ صموئيل ٢٠: ٣

ونصح أخيتوفل لأبشالوم أن يرسل في إثر أبيه جيشًا يساوره[1] وهو متعب، وينحي عليه بضربة قاصمة ويرد من تحت إمرته إلى أبشالوم، فانبرى حوشاي الأركي يسفه هذا الرأي وفتن أبشالوم عنه وزين له أن يرجئ مطاردة أبيه حتى يؤلب هو حوله كل من يستطيع تأليبهم، ثم يشد عليه شدة صادقة لا يستطيع لها دفعًا، وأخذ الملك وحاشيته برأي حوشاي الأركي.

«فإن الرب أمر بإبطال مشورة أخيتوفل الصالحة لكي ينزل الرب الشر بأبشالوم».

٢ صموئيل ١٧: ١٤

وأرسل حوشاي إلى داود من يعلمه بما كان، وينذره بما سيكون.

«فقام داود وجميع الشعب الذي معه وعبروا الأردن وعند ضوء الصباح لم يبق أحد لم يعبر الأردن. وأما أخيتوفل فلما رأى أن مشورته لم يعمل بها شد على الحمار وقام وانطلق إلى بيته إلى مدينته وأوصى لبيته وخنق نفسه ومات ودفن في قبر أبيه».

٢ صموئيل ١٧: ٢٢ -٢٣

وأحصى داود أتباعه تأهبًا للموقعة الفاصلة، وشبت الحرب بين الجمعين في وعر إفرايم.

«فانكسر هناك شعب إسرائيل أمام عبيد داود وكانت هناك

(١) ساوره: أخذ برأسه و -واثبه- ساورتني الهموم: وثبت علي.

مقتلة عظيمة في ذلك اليوم. قتل عشرون ألفًا».

٢ صموئيل ١٨: ٧

وركن أبشالوم إلى الفرار على ظهر بغل، فأقحمه البغل بين أغصان شجرة فينانة فنشبت الأغصان في شعره الأثيث[١] ولم يكن معه من يقص شعره.

«وعلق بين السماء والأرض والبغل الذي تحته مر».

٢ صموئيل ١٨: ٩

وتناهى خبره إلى يوآب، وكان داود قد أوصاه أن يرفق بولده، وهو الذي عقه وأثار الفتنة بين الشعب، ولكن يوآب لم يحفل بهذه الوصية.

«فأخذ ثلاثة سهام بيده ونشبها في قلب أبشالوم وهو بعد حي في قلب البطمة. وأحاط به عشرة غلمان حاملو سلاح يوآب وضربوا أبشالوم وأماتوه». ٢ صموئيل ١٨: ١٤

وعدا بعض المنافقين إلى داود يتنافسون في تبشيره بمهلك عدوه، ولكن الرجل تلقى الخبر كما يتلقاه أب لا كما يتلقاه قائد جيش.

«فانزعج الملك وصعد إلى علية الباب وكان يبكي ويقول هكذا وهو يتمشى يا ابني أبشالوم يا ابني يا ابني أبشالوم يا ليتني مت عوضًا عنك يا أبشالوم ابني يا ابني».

٢ صموئيل ١٨: ٣٣

---

(١) أث النبات: كثر والتف، ومنه نبت أثيث وشعر أثيث أي كثير عظيم. ومنه قول امرئ القيس:

وفرع يغشى المتن أسود فاحم أثيث كقنو النخلة المتعثكل

أي أن شعرها طويل يغطي ظهرها غزير كعذق النخلة الكثير الشماريخ.

«وستر الملك وجهه وصرخ الملك بصوت عظيم يا ابني أبشالوم يا أبشالوم ابني يا ابني».

٢ صموئيل ١٩: ٤

وبما أن الناس على دين ملوكهم، فقد بدأ الشعب أيضًا يندب ذلك المفتون، وقد أحنق ذلك يوآب الذي أردى أبشالوم بسهامه، فانطلق إلى الملك منكرًا عليه مسلكه.

«فدخل يوآب إلى الملك إلى البيت وقال قد أخزيت اليوم وجوه جميع عبيدك منقذي نفسك اليوم وأنفس بنيك وبناتك وأنفس نسائك وأنفس سراريك بمحبتك لمبغضيك وبغضك لمحبيك لأنك أظهرت اليوم أنه ليس لك رؤساء ولا عبيد لأني علمت اليوم أنه لو كان أبشالوم حيًّا وكلنا اليوم موتى لحسن حينئذ الأمر في عينيك».

٢ صموئيل ١٩: ٥-٦

وبعث داود إلى أولئك الذين كانوا قد التفوا حول ابنه وجعل يتألفهم ووعد قائدهم عماسًا أن يؤمره على الجيش بدلًا من يوآب، وعفا عن شمعي بن جبرا، وهو من ذوي قرابة شاول، وكان قد سبه وشمت به لما رآه مقصي عن الملك، بيد أن يوآب لم يمهله طويلًا بل قضى عليه غيلة.

«فقال يوآب لعماسا أسالم أنت يا أخي. وأمسكت يد يوآب اليمني بلحية عماسا ليقبله. وأما عماسًا فلم يحترز من السيف الذي بيد يوآب فضربه به في بطنه فدلق أمعاءه إلى الأرض ولم يثن عليه فمات». ٢ صموئيل ٢٠: ٩-١٠

وكانت قبلة يوآب هذه نموذجًا سابقًا لقبلة يهوذا الإسخريوطي الذي خنق نفسه كمثل ما فعل أخيتوفل.

وأرث رجل من سبط بنيامين يُدعى شبع بن بكري فتنة نعر فيها رجال إسرائيل وتخلف عنها رجال يهوذا، وامتنع مثير الفتنة ببلدة تُدعى آبل (أي هابيل) فأطاح أهلها برأسه.

* * *

وقد أعقبت هذه الحروب والفتن والمؤامرات والمغامرات فوضى شاملة، واستغلظت في البلاد مجاعة عاتية تلاها وباء فاتك، فأما المجاعة، فقد دامت ثلاث سنوات، وعللها رجال الدين، كدأبهم، بأنها عقاب من الله لشعبه على إثم سلف من بعض أفراده، ووضع داود النقط على الحروف، فزعم أنه استعلم ربه ذلك الإثم ما هو؟ فأعلمه أنه مقتل شاول للجبعونيين.

«وكان جوع في أيام داود ثلاث سنين سنة بعد سنة فطلب داود وجه الرب. فقال الرب هو لأجل شاول ولأجل بيت الدماء لأنه قتل الجبعونيين. فدعا الملك الجبعونيين وقال لهم: والجبعونيين ليسوا من بني إسرائيل بل من بقايا الأموريين وقد حلف لهم بنو إسرائيل وطلب شاول أن يقتلهم لأجل غيرته على بني إسرائيل ويهوذا. قال داود للجبعونيين ماذا أفعل لكم وبماذا أكفر فتباركوا نصيب الرب... فقالوا للملك الرجل الذي أفنانا والذي تآمر علينا ليبيدنا لكي لا نقيم في كل تخوم إسرائيل. فلنعط سبعة رجال من بنيه فنصلبهم

للرب في جبعة شاول مختار الرب. فقال الملك أنا أعطى».

٢ صموئيل ٢١: ١ -٦

لقد اصطلم شاول أولئك القوم استرضاء للكهنة، وعد موطنوه في ذلك الحين تلك المجزرة مأثرة من مآثره، ثم غيرت الرياح اتجاهها فأصبحت تلك الغيرة الدينية التي أبداها شاول سببًا في غضب الرب على بني إسرائيل جميعًا، وقد احتج داود بهذه الحادثة القديمة لاستئصال أبناء شاول حتى فلا يدع منهم منافسًا لذريته ولم يتورع عن قتلهم بالحبال.

«فأخذ الملك ابني رصفة ابنة أية اللذين ولدتهما لشاول أرموني ومفيبوشت وبني ميكال[١] ابنة شاول الخمسة الذين ولدتهم لعدريئيل ابن برزلاي المحولي. وسلمهم إلى يد الجبعونيين فصلبوهم على الجبال أمام الرب فسقط السبعة معًا وقتلوا في أيام الحصاد في أولها في ابتداء حصاد الشعير».

٢ صموئيل ٢١: ٨ -٩

وأما الوبأ فقد لبث ثلاثة أيام اجتاح فيها سبعين ألف رجل، ودع عنك النساء فلا وزن لهن.

«فجعل الرب وبأ في إسرائيل من الصباح إلى الميعاد فمات من الشعب من دان إلى بئر سبع سبعون[٢] ألف رجل».

٢ صموئيل ٢٤: ١٥

---

(١) ورد هنا اسم ميكال خطأ بدلاً من اسم مرب أختها الكبرى. التي تزوجها عدريئيل المحولي بعد أن عدل والدها شاول عن أن يزفها إلى داود. أما ميكال فقد هجرها داود في المضجع ليدعها تموت بلا عقب كما ذكرنا.

(٢) عدد ٧ ومضاعفاتها من الأعداد المحبوبة التي يتكرر ورودها في الكتاب المقدس.

وقد تفشى الوباء بالقوم عقب إحصاء عام أجراه داود في البلاد، ولم يكن الشيطان هو الذي زين لداود إجراء هذا الإحصاء، فليس للشيطان مكان في ديانة اليهود. ولكنه كان يهوه نفسه.

«وعاد فحمى غضب الرب على إسرائيل فأهاج عليهم داود قائلًا امض وأحص إسرائيل ويهوذا».

٢ صموئيل ٢٤: ١

وقد أنفذ داود مشيئة الرب ثم استبان له أنه أتى أمرًا إدًّا.

«وضرب داود قلبه بعدما عد الشعب. فقال داود للرب لقد أخطأت جدًّا في ما فعلت والآن يا رب أزل إثم عبدك لأني انحمقت جدًّا».

٢ صموئيل ٢٤: ١٠

وما هو وجه الخطأ في إجراء الإحصاء؟

وجه الخطأ هو أن في ذلك انتهاكًا للتابو، الذي يحظر على اليهودي أن يعد ما عنده من أناس أو حيوان؛ لأن عددها يعرضها للاشتهاء المذكور في الوصية العاشرة أي للحسد، والحسد مرتعه وخيم.

* * *

ولم يزل داود يسير هذه السيرة حتى بلغ أرذل العمر، فوهن عظمه ووهت قواه وأمسى يحس برودة في أطرافه، ولم تغن عنه وفرة الأغطية شيئًا.

«وشاخ الملك داود. تقدم في الأيام. وكانوا يدثرونه بالثياب

فلم يدفأ. فقال له عبيده ليفتشوا لسيدنا الملك على فتاة عذراء فلتقف أمام الملك ولتكن له حاضنة ولتضطجع في حضنك فيدفأ سيدنا الملك»[١].

١ ملوك ١: ١ -٢

لقد فقد نساءه وسراريه ما كان لهن عنده من فتنة وجاذبية فازدهدهن وأمسى ينشد خريدة[٢] غضة الإهاب[٣] تذكي في جوانحه[٤] ما خبا من طاقة؛ لعله يقوى على الافتراع مرة أخيرة قبل أن يُوارى في رمسه. وقد أرسل بعثة تجوس خلال المملكة تستعرض عذاراها استعراض الإماء لتنتخب من بينهن (دينامو) التدفئة. ولسنا نعلم كيف وقفت بنات إسرائيل من هذه البعثة؟ هل تكالبن عليها أم صددن عنها؟

«ففتشوا على فتاة جميلة في جميع تخوم إسرائيل فوجدوا أبيشج الشونمية فجاءوا بها إلى الملك. وكانت الفتاة جميلة جدًّا فكانت حاضنة الملك وكادت تخمه ولكن الملك لم يعرفها»[٥].

١ ملوك ١: ٣ -٤

لقد كانت تحضنه، وتجرب معه شتى أساليب الإثارة الجنسية، وتحاول أن تنفث فيه من حرارة شبابها ما يذهب ببرودة ريح الموت

(١) ويتندر العامة في مثل هذه الحالة بالمثل: التدفئة باللحم لا بالفحم.
(٢) الخريدة: اللؤلؤ لم تثقب. وكل عذراء خريدة.
(٣) الإهاب الجلد أو ما لم يدبغ منه، يقال «وكاد يخرج من إهابه في عدوه».
(٤) الجوانح: الأضلاع تحت الترائب مما يلي الصدر كالضلوع مما يلي الظهر.
(٥) يعني أنه لم يضاجعها.

التي بدأت تهب عليه، ولما قعد المرض بداود عن تدبير شؤون مملكته الصغيرة، نشط القادة والكهنة في حبك الدسائس، فانحاز يوآب القائد وأبياثار الكاهن إلى أدونيا، ودلف ناثان النبي إلى بتشبع يغريها بأن تستخدم ما لها من دالة على داود، في حمله على أن يستخلف ابنها سليمان حارمًا أدونيا حقه الشرعي في وراثة التاج.

ولم يخيب الملك طلبة آثر نسائه عنده.

«فنزل صادوق الكاهن[1] وناثان النبي وبنايا هو بن يهوياداع والجلادون والسعادة وأركبوا سليمان على بغلة الملك داود وذهبوا به إلى جيحون. فأخذ صادوق الكاهن قرن الدهن من الخيمة ومسح سليمان. وضربوا بالبوق وقال جميع الشعب ليحيى الملك سليمان». ١ ملوك ١: ٣٨-٣٩

ولما تناهى الخبر إلى أدونيا ملكه الرعب، وانفض من حوله من كانوا يتوقعون له أن يحل محل أبيه.

ولما حضر الموت داود نادى سليمان، وأوصاه بأن يقسو على أعدائه ولا يرحم منهم أحدًا، وأمره بأن يقتل قائده المظفر يوآب، ويوآب هو -فيما علمنا.

١- الذي فتك بأبشالوم الابن العاق لداود.

٢- الذي أنفذ أمر داود بقتل أوريا الحثي الزوج الأول لامرأته بتشبع.

---

(١) وإليه ينسب حزب الصدوقيين الذي ظل يضم ذريته حتى عهد المسيح.

٣- الذي صرع أبنير عندما ذهب إلى حبرون ليمكن داود من مليكه إيشبوست بن شاول.

٤ - الذي صرع عماسًا القائد السابق لجيش أبشالوم، وكان داود قد منّاه بأن يعقد له لواء الجيش بدلًا من يوآب.

٥- الذي أيد أدونيا على سليمان عندما تنازعا تاج الملك.

وأمر داود سليمان بأن يقتل كذلك شمعي، وكان قد أظهر الشماتة بداود يوم فر هاربًا من وجه ابنه أبشالوم، ثم أعطى له داود موثقًا ألا ينتقم منه على ذلك، وهو ميثاق يقيده دون ولده سليمان.

«وهو لعنني لعنة شديدة... فحلفت له بالرب قائلًا إني لا أميتك بالسيف. والآن فلا تبرره لأنك أنت رجل حكيم فاعلم ما تفعل به واحدر شيبته بالدم إلى الهاوية. واضطجع داود مع آبائه ودفن في مدينة داود... وجلس سليمان على كرسى داود أبيه وتثبت ملكه جدًّا».

١ ملوك ٢: ٨ -١٢

وهكذا دان الملك بالسيف لسليمان.

وذهب أدونيا الأحق بوراثة العرش، إلى بتشبع أم سليمان يستشفع بها عند أخيه الملك في أن يأذن له في تزوج أبيشج الشونمية، وكان الموت رد سؤاله.

«فأرسل الملك سليمان بيد بناياهو بن يهوياداع فبطش به فمات». ١ ملوك ٢: ٢٥

وعلم يوآب أنه قد حان حينه فتحرم بخيمة الرب.

«فهرب يوآب إلى خيمة الرب وتمسك بقرون المذبح».

١ صموئيل ٢: ٢٨

ولكن ذلك لم يغن عنه شيئًا، فقد أمر سليمان بانتهاك حرمة الخيمة وسفك دمه.

«فصعد بناياهو بن يهوياداع وبطش به وقتله فدفن في بيته في البرية. وجعل الملك بناياهو بن يهوياداع مكانه على الجيش وجعل الملك صادوق الكاهن مكان أبياثار».

١ ملوك ٢: ٣٤-٣٥

ونفى شمعي إلى أورشليم وحظر عليه أن يبرحها، فلما مضت له فيها ثلاث سنوات أبق[١] عبدان من عبيده إلى جت فانطلق وراءهما وأتى بهما، وبذلك وقع المحظور كان قد خلف أمر الملك بنفيه.

«وأمر الملك بناياهو بن يهوياداع فخرج وبطش به فمات. وتثبت الملك بيد سليمان».

١ ملوك ٢: ٤٦

وموجز القول أن داود:

١- عاش فترة من حياته يقطع الطرق على السابلة ويفرض الأتاوى على الأهلين ليكف عنهم أذاه.

٢- وكان رجلًا مزواجًا تعددت زوجاته وسراريه، ولم يكن يتعفف

(١) أبق: هرب من سيده، ومنه «في رقابهم الرباق ومن شأنهم الإباق».

عن إغواء النساء واغتصابهن، وإذ حملت منه إحداهن لم يتأثم أن يقتل زوجها.

٣- وكان من أظهر صفاته أنه كذاب مخادع لا يتحرج عن الحنث في أيمانه.

(١ ملوك ٢: ٨-٩)

٤- وقد دأب يكيد لمليكه النبي (شاول) ولم يزل يطارده حتى لقى الملك الشهيد منيته، فلم يكتف بذلك بل أهلك أبناءه أيضًا.

٥- وحرم ابنه الأكبر ولاية العهد، وجعل وراثة التاج لابنه من المرأة التي اختطفها والتي عرفت كيف تحتفظ بحظوتها عنده.

٦- وقد أغضى الطرف عن الكهنة وتركهم يدعمون صروح الضلال في البلاد.

٧- وقد طالما أغار على البلاد المتاخمة يعمل فيها يد السلب والنهب، وذيق الذين سقطوا بين براثنه من بني الإنسان والحيوان ألوانًا همجية من العذاب؛ فقد قتل الأسرى بالنوارج والمناشير وعقب الخيل وأباد سائر أهل البلاد المهزومة رجالًا ونساء وأطفالًا مصطنعًا في ذلك أساليب مقبوحة مستبشعة.

أما ابنه سليمان فهو، كما رأينا، قد:

١- ارتقى سرير الملك بانقلاب جرى في القصر.

٢- ووطد ملكه بالإسراف في القتل.

٣- وسار سيرة غيره من طغاة الشرق[١]، واستخدم السخرة[٢] في بناء قصره وهيكله.

٤- ولم تكن مملكته مستقلة استقلالًا تامًّا، ومع أنه لم يوسع رقعتها فهو في حساب اليهود ملك عظيم رفع من شأنهم في نظر جيرانهم.

٥- ومن الطبيعي في شعب تحكمه طائفة ذات بال من رجال الكهنوت، أن تشب منزلة ذلك الذي بنى أول هيكل لتمجيد يهوه فازداد بفضله دخل الكهنة، ومن الطبيعي كذلك أن يتغاضى المؤرخون من رجال الكهنوت عن التسميع بما أتى من شوائن الأعمال، وأن يراكموا حول اسمه -على نقيض ذلك- كل ما وسعته جعبتهم من قصص الحكمة ودقة الفهم وقوة السطوة واتساع السلطان.

«وأعطى الله سليمان حكمة وفهمًا كثيرًا جدًّا... وفاقت حكمة سليمان حكمة جميع بني المشرق وكل حكمة مصر... وتكلم بثلاثة آلاف مثل وكانت نشائده ألفًا وخمسًا. وتكلم عن الأشجار... وتكلم عن البهائم وعن الطير وعن

(١) ومما يدل على ذلك أن شيوخ إسرائيل مضوا إلى رحبعام بن سليمان الذي خلف أباه على عرش إسرائيل (دون يهوذا).

«وكلموا رحبعام قائلين: إن أباك قسّى نيرنا، فالآن خفف من عبودية أبيك القاسية ومن نيره الثقيل الذي جعله علينا فنخدمك».

٢ أخبار ١٠: ٣-٤

وقد رد عليهم الملك الجديد في غلظة:

«قائلًا: أبي ثقل نيركم وأنا أزيد عليه أبي أدبكم بالسياط وأما أنا فبالعقارب».

٢ أخبار ١٠: ١٤

(٢) السخرة: من يتسخره من قهره و -ما سخرت من خادم ودابة بلا أجر ولا ثمن.

الدبيب وعن السمك. وكانوا يأتون من جميع الشعوب ليسمعوا حكمة سليمان من جميع ملوك الأرض الذين سمعوا بحكمته».

١ ملوك ٤: ٢٩ -٣٤

ولقد فهم بعضهم من الآيات الأخيرة أنه كان يفهم حديث الشجر ويعلم منطق الحيوان، فسمت مكانته في الشرق، وكثر ورود اسمه في قصص ألف ليلة وليلة وما على شاكلتها على أن له قوة سحرية تيسر المستحيلات.

٦- وقد اشتهر سليمان بالحكمة والرشاد، وبلغ الذروة منهما في قصة المرأتين الزانيتين اللتين اختصمتا في طفل كل منهما تزعم أنها له أم.

«فقال الملك إيتوني بسيف فأتوا بسيف إلى بين يدي الملك. فقال الملك اشطروا الولد الحي اثنين وأعطوا نصفًا للواحدة ونصفًا للأخرى فتكلمت المرأة التي ابنها الحي إلى الملك. لأن أحشاءها اضطرمت على ابنها وقالت استمع يا سيدي. أعطوها الولد الحي ولا تميتوه. وأما تلك فقالت لا يكون لي ولا لك اشطروه. فأجاب الملك وقال أعطوها الولد الحي ولا تميتوه فإنها أمه. ولما سمع جميع إسرائيل بالحكم الذي حكم به الملك خافوا الملك لأنهم رأوا حكمة الله فيه لإجراء الحكم».

١ ملوك ٣: ١٦ -٢٨

ولهذه القصة نظير في سيرة بوذا[1] أرق وأرقى من القصة العبرية، مفادها أن بوذا أمر الماثلين بين يديه أن يرسموا على الثرى خطًّا وأن يرقدوا فوقه الطفل، وطلب إلى المرأتين المختصمتين أن تقف كل منهما في أحد جانبي الخط وتنزع إليها الطفل من إحدى ذراعيه وإحدى ساقيه فمن انتزعته من الأخرى كان لها. فبادرت تلك التي هي أمه حقًّا تعلن نزولها عن حقها في الطفل درءًا له للأذى عنه وحياطة له من المكروه. وعندئذ التفت بوذا إلى من يحفون من حوله يسائلهم أي قلوب الناس أحنى على الأطفال وأرفق بهم؟ فأجابوه: إنها قلوب الأمهات أيها الباندت، فانثنى يسألهم فأي الاثنتين هي أم الطفل يا ترى؟ فأجابوه هي هذه التي طابت نفسها بأن تتخلى عنه وقاية له من الأذى، فأسلموه إليها وقد ذكروا فيما ذكروا من أخبار سليمان وتدبيراته الحكيمة أن ملكة سبأ تاقت إلى أن تخبر بنفسها حقيقة ما تناهى إليها من ذلك، فشخصت إليه وانبرت تطارحه القول في أشتات الموضوعات فإذا هي ترى من حكمته فوق ما كانت قد سمعت عنه فأقرت بصحة ما كان بلغها من أمره.

«فقالت للملك صحيحًا كان الخبر الذي سمعته في أرضي عن أمورك وعن حكمتك».

١ ملوك ١٠: ٦

وأهدت إليه هدية ثمينة من الذهب والأحجار الكريمة وخشب الصندل والأطياب وما إلى ذلك.

(١) وقد صلب في الهند نحو سنة ٦٠٠ ق. م، فهو لاحق في الزمن على سليمان ولكنه سابق لسفر الملوك الذي سرد لنا هذه القصة.

ولهذه القصة مثيل في الأقاصيص الشعبية الذائعة في جزائر سلبيز (بإندونيسيا).

٦- بيد أن المتأخرين قليلًا من الكهنة لم يقنعوا بما وضع أسلافهم في سيرة سليمان من قصص البطولة والحكمة، فأضافوا إلى ذلك ثلاثة أسفار عزوها إليه هي:

(أ) نشيد الإنشاد، ومنه.

«ما أجمل رجليك بالنعلين يا بنت الكريم. دوائر فخذيك مثل الحلى صنعة يدي صناع، سرتك كأس مدورة لا يعوزها شراب ممزوج. بطنك صبرة حنطة مسيجة بالسوسن. ثدياك كخشفتين توأمي ظبية... ما أجملك وما أحلاك أيتها الحبيبة باللذات. قامتك هذه شبيهة بالنخلة وثدياك بالعناقيد قلت إني أصعد إلى النخلة وأمسك بعذوقها. وتكون ثدياك كعناقيد الكروم ورائحة أنفك كالتفاح وحنكك كأجود الخمر - لحبيبي السائغة المرقرقة السانحة على شفاء النائمين».

نشيد ٧: ١ -٩

«ليتك كأخ لي الراضع ثديي أمي فأجدك في الخارج ولا يخزونني. وأقودك وأدخل بك بيت أمي وهي تعلمني فأسقيك من الخمر الممزوجة من سلاف رماني. شماله تحت رأسي ويمينه تعانقني. أجلفكن يا بنات أورشليم ألا تيقظن ولا تنبهن الحبيب حتى يشاء».

نشيد ٨: ١ -٤

(ب) الجامعة، وهو يبدأ هكذا:

«كلام الجامعة ابن داود الملك في أورشليم. باطل الأباطل الكل باطل. ما الفائدة للإنسان من كل تعبه الذي يتعبه تحت الشمس».

الجامعة ١: ١ -٣

وهي في الترجمة الإنجليزية:

The words of Kohleth, the son of David هذا، وبما أنه ليس بين أبناء داود من يعرف باسم «كوملث» فقد استبدلت الترجمة الإنجليزية بهذا الاسم كلمة **preacher** أي الواعظ. وابتدع حاخامو اليهود قصة يعللون بها ورود هذا الاسم، فزعموا أن يهوه ضاق ذات يوم ذرعًا بما داخل سليمان من غرور وخيلاء، فأرسله يجوب أقطار العالم واعظًا الناس وداعيًا إياهم إلى ما فيه صلاحهم. وأحل محله شيطانًا في صورته تربع فوق عرشه واستمر يحكم الشعب بدلًا منه.

ج. الأمثال، وهو مجموعة لا ترابط بينها من الحكم، تتضمن كثيرًا من أقوال رجل أقدم عهدًا من الزمن الذي كتب فيه هذا السفر، ألا وهو الحكيم أحيقار الذي كان رئيسًا لمجلس وزراء أشور في عهد سنحريب وأرسله ملكه إلى مصر حيث أبدى بين يدي فرعون نضج فكر وعلو كعب في الحكمة.

وقد ورد ذكر أحيقار وأقواله الحكيمة في سفر طوبيث[1]. هذا وقد

(١) وهو أحد الأسفار غير الموثوق بها، وهي تلك الأسفار العبرية المقدسة غير الموثوق بها التي كتبت بعد الانتهاء من وضع «العهد القديم» فهي ليست منه، بيد أنها ألحقت به في الترجمة السبعينية.

اكتشف المنقبون في جزيرة فيلة بأسوان سنة ١٩٠٤ عشر ورقات من ورق البردى أحسن حفظها فلم تمسسها يد البلى. وأغلب الظن أنها كُتبت قبل المسيح بخمسة قرون لجالية يهودية كانت تقيم هناك في عهد أحد ملوك الفرس. وجاء في بعض تلك الأوراق:

أقوال الكاتب الحكيم الحاذق المدعو أحيقار وقد لقن ابنه إياها.

وتلك موازنة بين بعض هذه الأقوال وما ورد مشابهًا لها في سفر الأمثال المعزو إلى سليمان:

سفر الأمثال	أقوال أحيقار
لا تمنع التأديب عن الولد لأنك إن ضربته بالعصا لا يموت. تضربه أنت بعصا فتنقذ نفسه من الهاوية. ٢٣: ١٣ - ١٤	إنك إن ضربته بالعصا لم يمت ولكنك إن تركته لهواه أصبح لصًّا يساق إلى المشنقة ليموت عليها.
الحجر ثقيل والرمل ثقيل وغضب الجاهل أثقل منهما كليهما. ٢٧: ٣	أي بني: لقد حملت الحديد والحجر على كاهلي ألا إن ذلك لأهون علي من مساكنة الجهلاء والحمقى.
لا تفرح بسقوط عدوك ولا يبتهج قلبك إذا عثر. ٢٤: ١٧	أي بني: لا يأكلنك الحسد إذا ما أصاب عدوك بلهنية عيش ويسر حياة ولا يهنك ما يلم به من محنة وضيق.

تم الكتاب

الفهرس

قابيل وهابيل	٥
إبراهيم	٢٣
لوط	٣٩
يوسف	٦١
داود	٨٩